16 em Année No. 774

Lundi — 8 — 5 — 1948

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٧٧٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٧ — ٣ مايو سنة ١٩٤٨ » السنة السادسة عشرة

من علامات الساعة . . . !

من علامات الساعة أن يتشجع اليهودى فيحمل سلاحاً ويشهد حرباً ويحرز نصراً ويحتل مدينة ! !

ومن علامات الساعة أن يخرج اليهودى من البنك إلى الشكنة ، ومن الدكان إلى الميدان ، ليحارب العرب على فلسطين ، ويثأر للفرنج من صلاح الدين ! !

ومن علامات الساعة أن يكون لليهود جيش ينتصر على العرب فى حيفا ، وعلم يرفرف على المسجد فى يافا ، ودولة تريد أن تقوم فى القدس ! !

كذلك من علامات الساعة أن ينهزم العربى أمام اليهودى ولو ظاهرته مادية الأمريكان وخديعة الانجليز وشيوعية الروس ؛ فإن الثعلب بحسبه أن يشم ريح الأسد من بعيد ليُجحر ، وإن الفأر بحسبه أن يبصر الهر من فوق الجدار ليسقط !

يا لله ماذا نرى ؟ نرى الألوف من نساء العرب وأطفال العرب يخرجون من ديارهم مشردين فى البر والبحر ؛ يلتمسون فى الشام المأوى ، ويطلبون فى مصر الأمن ، وأهلوهم مصرَّعون على ثرى الوطن الحبيب السليب بعد أن قذفوا فى صدر العدو آخر رصاصة ، ودفعوا غائلة الجوع بآخر كسرة ، وافتدوا وطن الآباء بآخر رمق !

يا لله ماذا نسمع ؟ نسمع أن تل أبيب تحكم يافا ، وأن راية صهيون تخفق على مسجد (حسن بك) ، وأن بنى إسرائيل يذبحون الأبناء ويستحيون النساء فى دير ياسين !

لقد سمعنا أن اليهود يحتلون البلاد بالنساء والذهب ، ولكننا لم نسمع قبل اليوم أنهم يحتلونها بالرجال والحديد ! !

ماذا جرى حتى استجملت الناقة يا يهود ، وماذا جرى حتى استنوق الجمل يا عرب ؟ ! جرى أن اليهود يعملون ونحن نقول ، ويجدّون ونحن نهزل ، ويبذلون ونحن نبخل ، ويتعاونون ونحن نتخاذل ، ويتكلون ونحن نتواكل !

للجامعة العربية فى كل شهر مؤتمر ، وفى كل أسبوع مجتمع ، وفى كل يوم قرار ، وفى كل ساعة تصريح ، وفى كل دقيقة خطبة ؛ وكل أولئك يحمله الهواء إلى المجاهدين المجهودين أصواتاً لا تدفع سيارة ، ولا ترفع طائرة ، ولا تحشو مدفعاً ، ولا تملأ بطناً ، ولا تبعث قوة . فإذا جاء يوم العمل نظر بعضهم إلى بعض ، فإذا الأول واقف لأن ترومان لم يتقدم ، وإذا الثانى ساكت لأن بيفن لم يتكلم ، وإذا الثالث مترجح لأن الآخرين لم يستقروا على رأى !

كنا قبل أن تنشأ (الجامعة العربية) أهواء متشعبة وآراء متضاربة وقوى متفرقة ؛ فكنا نجد عذرنا فى هذا الانقسام ، ونعزو فشلنا إلى هذه الفرقة ، ونهدد خصمنا بأن فى جمعتنا الخلاص منه ، وفى وحدتنا القضاء عليه ؛ فلما أذن الله لأوطاننا أن تتصل ، ولدولنا أن تتحد ، ابتلانا بمحنة فلسطين ليعلم العدو المتربص ماوراء العربى إذا تجمع شمله ، وما غناء الإسلام إذا تجدد حبله

(البقية على الصفحة التالية)

الصحافة فى الميثاق الصهيونى

للأســـتاذ نقولا الحداد

قرأت أخيراً أن فى العراق حركة صحفية هائلة ؛ فقد صدرت تصريحات لجرائد جديدة عديدة ، وأنبئنا بصراحة أن لليهود نفوذاً كبيراً فيها . وإذا كان اليهود قد مدوا أنوفهم للجرائد العراقية فلا بدع أن يفعلوا هنا فى مصر أكثر من هذا وأجهر . عندنا هنا أربع جرائد أفرنجية صهيونية ، ومجلة عربية شهرية . وفى كل جريدة من جرائدنا المحلية العربية صهيونى أو أكثر يسيطر عليها لقاء خدمة اقتصادية هى استجداء الإعلانات لها من أرباب المصالح اليهودية عن يد شركة الإعلانات الشرقية وهى صهيونية

وقيل لنا بالأمس إن إحدى جرائدنا الكبرى قد باعت ٤٩ بالمئة من قيمتها لشركة الإعلانات الشرقية ، وما بقى منها إلا اثنان بالمئة لكى تتحول السيطرة القانونية عليها إلى الشركة المذكورة ، ولكن الشركة لا تعجز عن الحصول عليها بأية الطرق ، فيصبح عنق تلك الجريدة الموقرة تحت نير الصهيونية تفاخ به الدعاية الصهيونية على كيفها . ثم ما لبثنا أن قيل لنا إن الجريدة نفسها اشترت الشركة كلها . ثم قيل لنا إن الجريدة والشركة اندمجتا معاً فى شركة واحدة ، ولا اعتبار لأى الفريقين أثقل يداً فى الشركة المزدوجة ، لأن الموظفين الذين كانوا يديرون الحركة فى شركة الإعلانات لا يزالون فيها وكلهم يهود . فهى شركة محايدة صورياً وصهيونية فعلا. كل هذا لا يهمنا كثيراً إلا أننا نعلم أن الصهيونيين بسطوا يدهم على رأس الصحافة العربية المصرية . حدث هذا فى الوقت الذى نسخط فيه على الصحافة الأميركية التى أصبحت تحت سلطان الصهيونيين وصار الرأى العام الأميركى للمئة وخمسة وثلاثين مليوناً من الأميركان بقيادة الصهيونيين . فإذا بقيت أصابع الأخطبوط الصهيونى تتغلغل فى الرأى العام العربى أصبح العرب خضّماً وسجداً عقلا وإحساساً واقتصاداً للنفوذ الصهيونى

وإليك الميثاق الثانى عشر من برنامج الصهيونيين فى الصحافة :

البند الأول : إن كلمة « حرية » التى تفسر تفسيرات مختلفة نحن نفسرها هكذا :

البند ٢ — الحرية هى أن يكون لك الحق أن تفعل ما يخوله لك القانون . إن هذا التفسير يكون فى أكثر الأحيان العادية خادماً لنا لأن القانون فى يدنا بل نحن القانون . القانون ينفى أو يثبت ما نحن راغبون فيه طبقاً لبرنامجنا . فإذاً الحرية بأى معنى تكون فى يدنا .

البند ٣ — تستخدم الصحافة هكذا :

ما هو الدور الذى تلعبه الصحافة اليوم ؟ الصحافة تثير العواطف التى تقتضيها غايتنا ، وتهيج الإحساسات التى تخدم أنانية الأحزاب وغاياتها . والجمهور لا يعلم ولا يفهم ماذا تخدم الصحافة من الأغراض الحزبية السخيفة التافهة الباردة . نحن نسرج الشعب ونلق على ظهره البرذعة وكذا نفعل بحاصلات المطابع والصحافة . وإلا فكيف نرد هجمات الصحافة إذا كنا أهدافاً للكتب والرسالات التى تهاجمنا ؟ إن نتاج الدعايات التى تستوجب النفقات الثقيلة بسبب ضرورة الرقابة عليها ستكون مورداً كبيراً لدولتنا لأننا سنفرض عليها ضريبة طوابع خاصة ونطلب من أصحابها ضمانات مالية قبل أن تصدر، ورخصة لكل صحيفة ومطبعة ، وهذا الإجراء يكون ضمانة لحكومتنا ضد كل هجوم عليها من قبل الصحافة والطباعة . لأننا فى محاولة كل هجوم نضرب غرامة ثقيلة بلا رحمة ولا شفقة . ولا يخفى أن الأحزاب لا تبخل على الجرائد بالنفقات اللازمة لها لأجل الدعاية . وإنما يمكننا أن نقفل أفواه هذه الدعايات ضدنا عند ثانى هجوم تهجمه علينا ؛ وذلك بمعاقبتها بالغرامة الثقيلة

فالجامعة العربية اليوم فى ميزان الأقدار وامتحان الشدائد ؛ فإذا رجحت كفتها على اليهودية رجحت فى كل أمة ، وإذا ثبت معدنها على المحك فى هذه الأزمة ثبت فى كل أزمة .

إن مستقبلنا رهن بهذه المعركة ؛ فإذا كسبناها كسبنا جل ما نبغى ، وإذا خسرناها خسرنا كل ما نملك . ذلك لأن اليهود لا يستطيعون أن يقيموا لهم دولة فى فلسطين إلا على عمد من الجبهة الغربية أو الجبهة الشرقية . وأيًّا ما تكن هذه العمد فإنها التدمير والتكفير والفوضى إذا كانت شيوعية ، وإنها الاستعمار والاستثمار والبلوى إذا كانت رأسمالية .

احمد حسن الزيات

لا أحد يجرأ أن يضع أصبعه على فم معصومية حكومتنا ، وعندنا عذر لإغلاق أية جريدة أو مطبعة ، وهى أننا ندعى أن الجريدة تقلق الرأى العام وتهيجه بلا مبرر .

(يقول خطيب جلسة الحكماء) — أرجو أن تلاحظوا أن يكون لهؤلاء المهاجين لنا محررون لجرائد نحن أنشأناها ولكنها لا تهاجم إلا نقطاً فى سياستنا وإجراآتنا . كنا قبلا قد قررنا تنقيحها وتغييرها ، فكأنها تهاجم الريح .

البند ٤ — لا يذاع على الجمهور أية إذاعة إلا بإرادتنا وتحت سيطرتنا . إن الأنباء والمنشورات حتى اليوم هى تحت سيطرتنا ، لأن جميع أنباء العالم مركزة فى مراكز خاصة تتهافت إليها الأخبار من جميع أقاصى الأرض وتتوزع منها إلى جميع أنحاء العالم ، وجميع وكالات هذه المراكز فى أيدينا فتذيع ما نمليه نحن عليها .

(يمكنك أن تقول إن هذا هو الحاصل اليوم) .

البند ٦ — فلنوجه الآن أنظارنا إلى مستقبل الصحافة : كل من يرغب أن يكون ناشراً أو كاتباً أو طابعاً يجب أن يكون حاصلا على دبلوم من جامعة أو مدرسة مختصة بتخريج الناشرين والكتاب . وبحسب قانون هذا الدبلوم يمنع الناشر من النشر عند أول خطأ يرتكبه . هذه التدابير تكون وسيلة ثقافية فى أيدى حكومتنا التى لا تسمح للجمهور أن يقاد فى غير الطريق الذى نرسمه نحن إلى بركات النجاح . هل يوجد واحد منا يجهل أن هذه البركات الخيالية هى السبيل المؤدى رأساً إلى المتخيلات التى تلد علائق الفوضوية بين الناس وبينهم وبين الحكومة ؛ لأن الرق أو تصور الرق يدخل إلى الحكومة فكرة التحرر ، ولكنه يعجز عن إقامة حدود للتحرر ، وجميع الذين يدعون أنهم أحرار هم فوضويون ولو بالفكر ، وكل واحد منهم يحاول أن يتصيد طيف الحرية ، ويقع فى فوضى الاحتجاج على تقييد الحرية لا لغرض سوى حب الاحتجاج لا لأجل التحرير .

البند ٧ — نأتى الآن إلى المطبوعات الدورية . فهذه سنفرض عليها وعلى كل مطبوعة ضرائب بوضع طوابع على كل صفحة ، ونفرض أيضاً ضمانة مالية . والكتب التى تقل عن ٣٠ صفحة تضاعف الضريبة عليها ونعتبرها كراريس ؛ أولا لكى يقل عدد الكراريس والمجلات التى هى أردأ المطبوعات السامة . وثانياً لكى يوجب هذا التدبير على الكتاب أن يتوسعوا فى الكتابة وتكون كتبهم كثيرة لكى يتجنبوا عبء الضريبة . فيقل قراؤهم ، وفى الوقت نفسه نجعل مطبوعاتنا التى نؤثر بها على عقلية الجمهور رخيصة فى متناول كل واحد لكى يقرأ بنهم وشوق . لأن الضريبة تقلل الطموح الأدبى وتخور عزيمة الكتاب . وثقل الغرامات يجعل أرباب القلم معتمدين علينا ، وإذا قام بعض الكتاب يكتبون ضدنا فلا يجدون من يطبع لهم . وعلى الناشر أو الطابع أن يحصل على إذن للطبع والنشر . وهكذا يتيسر لنا أن نعرف نيات أضدادنا فنصدها ولو بحجج واهية .

البند ٩ — الأدب والصحافة هما أهم القوى الثقافية . ولذلك ستملك حكومتنا أقوى الجرائد والمجلات ، وهذه تخمد أنفاس كل نفوذ لكل صحيفة مستقلة تنشر أموراً ضدنا ، وبالتالى نملك بتأثير جرائدنا كل تأثير على الرأى العام . وإذا منحنا رخصا لنشر جرائد يجب أن يكون لنا ثلاثون جريدة وعلى هذه النسبة تكون الصحف المستقلة . وهذا التدبير لا يثير شبهة الشعب ضدنا ، ولا سيما إذا جعلنا بعض الجرائد التى نصدرها معارضة فى الظاهر لنا فتكثر ثقة الشعب بها ، وإنما تكون المعارضة فى السطحيات . ولذلك تقوى ثقة الشعب بنا نحن أيضاً ، وتدفع إلى يدنا الخصوم المعارضين الذين يشتبهون بمقاصدنا ، ويقعون فى فخاخنا ولا ضرر منهم لنا .

البند ١٢ — تكون جرائدنا من كل لون : ارستقراطية جمهورية ثورية حتى فوضوية بحسب مقتضى الحال ؛ ويكون لها يد فى كل رأى عام . فإذا نبض نابض فى إحدى هذه الأيدى المحركة يقود الرأى العام فى اتجاه مقاصدنا . لأن الضعيف المنفعل ينفذ قوة الحكم ويذعن إلى أية إشارة منا . وهؤلاء القوم المغفلون الذين يظنون أنهم مرددون رأى جرائدهم ، يرددون بالفعل الرأى الذى نحن نرغب فيه ، ويظنون عبثاً أنهم يتبعون رأى جرائدهم ولكنهم بالحقيقة سائرون فى ظل رايتنا .

البند ١٤ — إن مهاجمة خصومنا لنا تخدم أغراضنا من جهات أخرى ، وهى أن رعايانا يقتنعون ويعتقدون أنهم حاصلون على ملء الحرية فى الكلام والنشر ، وهكذا يتحول أنصارنا إلى اليقين بأن جميع الجرائد المخالفة لنا ليست إلا فقاقيع فارغة لأنها غير قادرة على أن تجد أثراً جوهرياً فى مخالفتها لأوامرنا .

البند ١٥ — إن قواعد التنظيم التى لا تراها أعين الجمهور هى من أضمن الوسائل لكسب ثقة الجمهور إلى جانب حكومتنا .

إن هذه الطرق تجعلنا من حين إلى آخر في مركز يجعلنا قادرين على أن نثير العقل الاجتماعي أو أن نهدئه في المسائل السياسية حسب رغبتنا، فنقنعه أو نشوش عليه أو نضعضعه. فالآن الصدق، وغداً الكذب. ننشر الحقائق ثم ننشر ما يخالفها، نفعل هذا حسب مقتضى المصلحة، نفعله بكل حذر؛ نجس الأرض قبل أن نضع أقدامنا. سيكون لنا نصر مبين على خصومنا أو معارضينا لأنهم لا يملكون جرائد تستطيع أن تعطي التعبير الصحيح عن آرائهم بسبب خطتنا في معاملة الصحافة، ولذلك لا نضطر أن نجحدها إلا جحداً سطحياً وهم يظنون أنهم يتمتعون بحرية الصحافة.

الملخص: النفاق في مذهب الصهيونيين هو ملح الصحافة وبهارها بل هو « شطتها » أيضاً. هو البهار الذي يشهي القراء للقراءة. فلذلك ترى الجرائد مبتلاة بالأخبار الكاذبة فلا تدري إن كان الخبر الذي تقرأه صادقاً أو كاذباً، وشركات الأخبار مبتلاة بسيطرة الصهيونيين عليها كبلوى الجرائد. تقرأ اليوم خبراً فتصدقه لأنه معقول فلا يشعرك بغش فيه، ثم لا تلبث أن تقرأ غداً نقيضه أو تكذيباً له. ولا يمكن جمهور القراء أن يشكوا في صدق ما يقرأون وإلا فلا يصدقون خبراً. لا يمكنهم أن يميزوا بين الخبر الصادق والخبر الكاذب؛ لأنه ليس في ما ينشر شبهة تضلل الظن. إن اختلاق الأخبار وتمويجها هو سجية في الصهيونيين يستغلونها لأغراض شيطانية لا تنكشف إلا بعد حين، وقد تقرأ خبراً ضد مصالحهم فلا تلبث أن ترى أنه كاذب ولكنه نفعهم).

(منذ صارت قضية فلسطين في هيئة الأمم كانوا يذيعون أن عندهم جيشاً من الهاجاناه يبلغ ٨٠ ألفاً. ولما جاء دور القتال لم يظهر عندهم أكثر من ٨٠٠ جندي. فكانوا كلما وقعوا في ورطة مع العرب يهرعون إلى الجيش البريطاني لكي ينجدهم. ولما بدت مسألة التقسيم وشعروا أن العرب متحفزون للدفاع أذاعوا أنهم طلبوا من أميركا ٤٧٢ مليون دولار وستأتيهم توا، فما أتاهم شيء. ثم أذاعوا أن القائد الكبير فوزي بك القاوقجي قتل في معركة فاصلة. فما لبث القاوقجي أن أذاع في الراديو أنه يفقأ حصرمة في عيونهم. وهكذا لهم كل يوم كتاب من الأكاذيب في الجرائد والمجلات والأنباء التلغرافية التي في حوزتهم. فيجب الحذر من قبول الأخبار).

البند ١٧ يشرح التعليمات للصحافة من حيث ارتباطها بأسرار الماسونية التي لا يباح بها، وكل صحافي مقيد بأسرارها كأنها أسرار المهنة، وكل فرد من الصحفيين يخشى أن يبوح بسر لئلا يتهم بفضيحة، وما من أحد خال من فضيحة.

البند ١٨ — فحواه أنه لا بد من إلهاب عقليات أهل الأقاليم عند ضرورة التأثير في العاصمة، ومصدر هذه التهيجات في كل حال يكون « نحن » على قصد أن الرأي الذي قبل في العاصمة يكون حائزاً لتأييد الأقاليم.

البند ١٩ — حين نكون في فترة الانتقال من الحكم القديم إلى حكمنا الجديد أي إلى ما نظفر به من السيادة يجب أن لا نسلم بما نقلته الصحف من خيانة أحد من الشعب. يجب أن يكون نوع الحكم الجديد يرضي كل فرد من الناس. يجب أن يرى فيه الشعب أمانيه محققة وأن الاجرام قد زال. ويجب أن يقتصر البلاغ على المجني عليه والشهود فقط. يعني أن لا تنشر الجرائد أخبار الجرائم لكي يقتنع الشعب أن الأمن مستتب تمام الاستتباب

هذا ملخص الميثاق الثاني عشر عن الصحافة، وإلى الملتقى مع القراء في حين آخر.

حاشية: قرأنا أن معظم عرب حيفا هاجروا إلى سوريا ولبنان، وفي بعض الروايات أن المهاجرين تجاوزوا الأربعين ألفاً وبعضهم رفع الرقم إلى ثمانين ألفاً. وقد قيل لنا إن بعضهم هاجروا إلى مصر لكي تتحمل مصر تبعتها من هذه النكبة. أليس مؤلماً مفزعاً أن يفر أهل الدار منها، وأن الضيوف المغتصبين يبقون فيها فيستولون على جميع ممتلكات العرب كما فعل بنو إسرائيل يوم « جرجرهم » موسى إلى أرض كنعان فنهبوا فرش الكنعانيين وحللهم وطناجرهم الخ — التاريخ يعيد نفسه. وإذا كانت الدول العربية لا تنقض بكل قواها على تل أبيب من جميع النواحي، ويدكونها دكاً ليضطروا اليهود أن يخلوا حيفا لكي يأتوا لإنقاذ تل أبيب رغم أنوفهم — إذا لم تفعل الدول العربية كلها هكذا في وقت واحد استفحل اليهود وغزوا يافا ثم القدس وسائر مدن فلسطين، ثم انتقلوا إلى عمان فإلى دمشق فإلى بيروت فإلى مصر، إلى جميع ممالك العالم، وحينئذ يصح حلم الصهيونيين.

إن ما يتظاهر به اليهود في حيفا من الإنسانية نحو العرب إنما هو مكر فلا تصدقوه. لا يخرجون عن طبيعتهم، فحذار منهم!

نقولا الحداد

عبد الله بن سبأ

للدكتور جواد على

هذا رجل نقرأ خبره فى كل كتاب من كتب « العقائد والفرق » ، وفى أكثر كتب التاريخ التى تعرضت لموضوع « الفتنة » التى حدثت فى أيام الخليفة « عثمان بن عفان » ، وفى حادث مقتل الخليفة « على بن أبى طالب » فى الكوفة بعد تلك المؤامرة السياسية التى دبرها نفر من المعارضين لسياسة الخليفة وسياسة « معاوية بن أبى سفيان » و « عمرو بن العاص » بطل رواية التحكيم .

وقد وضع الدكتور طه حسين كتاباً أسماه « الفتنة الكبرى[1] » بحث فيه عن عصر الخليفة الشهيد « عثمان بن عفان » ، وعن العوامل التى أدت إلى حدوث تلك الفتنة التى فرقت شمل العرب بعد ألفة ، وضعضعت صفوف المسلمين إلى اليوم .

وقد تعرض الدكتور فى الفصل الثالث عشر من كتابه لعبد الله بن سبأ الذى كانت له يد طولى فى هذه الفتنة على رأى جمهور من المؤرخين . وقد ذهب الدكتور إلى أن الرواة المتأخرين قد أكبروا من شأن هذا الرجل وأسرفوا فيه حتى جعل كثير من الرواة القدماء والمتأخرين هذا اليهودى المسلم مصدراً لما كان من الاختلاف ، إلى أن قال :

« ولست أدرى أكان لابن سبأ خطر أيام عثمان أم لم يكن ، ولكنى أقطع بأن خطره — إن كان له خطر — ليس ذا شأن ، وما كان المسلمون فى عصر عثمان ليعبث بعقولهم وآرائهم طارئ من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان ، ولم يكد يسلم حتى انتدب لنشر الفتنة وإذاعة الكيد فى جميع الأقطار[2] » .

وقد علق على الكتاب جماعة من الكتاب منهم الأستاذ السيد محمود محمد شاكر الذى نشر بحثاً قيماً فى مجلة « الرسالة » عن « الفتنة » ، وعن علاقة « عبد الله بن سبأ » بها[1] ، وقد أنكر على الدكتور رأيه فى هذا اليهودى المسلم ، صاحب الفتنة ، وصاحب تلك الآراء الفاسدة التى رددها ولقنها جماعة من السذج وهم فى صدر الإسلام على مايقوله أصحاب كتب العقائد والتاريخ .

والواقع أن خبر « عبد الله بن سبأ » ، وخبر الفرقة التى استجابت لدعوته ، وخبر الفتنة التى أثارها فى العراق وفى مصر خاصة ، وخبر تلك المقالة المنسوبة إليه ، فى المال وفى الرجعة وفى الوصية ، وفى الغلوّ فى حب على بن أبى طالب ؛ كل هذه من المسائل التى تحتاج إلى دراسة وبحث ، ورجوع إلى المصادر ، ومقارنة تلك المصادر بعضها ببعض ، وترتيبها ترتيباً زمنياً ، ونقد رجال الرواية ، وفحصها فحصاً دقيقاً حتى يتمكن المؤرخ من الحكم فى هذه القضية حكماً قطعياً ، وما نقوله لم يتم حتى الآن .

وقد لقى موضوع « عبد الله بن سبأ » عناية خاصة من المستشرقين ولا سيما من يهود المستشرقين . وأعتقد أن السبب واضح ؛ فهنالك طائفة منهم كانت على علمها وتدقيقها تتعصب على الإسلام ، وتتمسك حتى بالتافه من الروايات وبالأحاديث الموضوعة التى نص علماء الحديث على كذبها ، وتتخذها حجة لإثبات أثر اليهودية أو النصرانية فى الإسلام وفى أصول الدين .

ومن جملة أولئك المستشرقين « هربلو » « D Herbelot » و « دى سامى » « De Sacy » و « فايل » « weil » و « فون كريمر » « Von Kremer » و « دوزى » « Dozy » و « مورى » « Muir » و « أوكست ميلر » « August Muller » و « فان فلوتن » « Van Vloten » و « كريتس » « Crotz » المؤرخ اليهودى المعروف ، و « ولهوزن » « wellhausen » و « هرشفلد » « Hirschteld » و « هوتسما » « Houtsma » . فى مادة « عبد الله بن سبأ » فى « دائرة المعارف الإسلامية » ، و « اسرائيل فريد لندر » « Israel Friedlaender » ، وقد بحث عن عبد الله بن سبأ بحثاً مفصلا ، وجمع كل ما أمكنه جمعه من الروايات التى وردت فى الكتب العربية عن هذا اليهودى .

(١) الدكتور طه حسين . الفتنة الكبرى ١ عثمان . دار المعارف بمصر ١٩٤٧

(٢) الفتنة ص ١٣٢

(١) « الرسالة » العدد ٧٦١ يوم الاثنين ٢ فبراير سنة ١٩٤٨ السنة السادسة عشرة والعدد ٧٦٢

ورد خبر عبد الله بن سبأ فى كتب الأدب والتاريخ ، ويرجع أصل هذه الروايات إلى العصر الأموى ، وإلى رواة الكوفة أو البصرة ، أى رواة أهل العراق ، وممن ذكرهم « الجاحظ » المتوفى سنة ٢٥٥ للهجرة وهو أديب كبير صاحب أحاديث لطيفة ، ذكرهم فى كتابه الشهير « البيان والتبيين » فى « كتاب العصا[١] » وقد أخذ روايته عن حباب بن موسى عن مجالد ، عن الشعبى ، عن جرير بن قيس ، الذى قال : قدمت المدائن بعد ما ضرب على ابن أبى طالب كرم الله وجهه فلقيني ابن السوداء وهو ابن حرب فقال لى ما الخبر ؟ فقلت : ضرب أمير المؤمنين ضربة يموت الرجل من أيسر منها ، ويعيش من أشد منها . قال : لو جئتمونا بدماغه فى مائة صرة لعلمنا أنه لا يموت حتى يذودكم بعصاه[٢] . وقد نقل عن الجاحظ جمهور من المصنفين نقلا يمكن معرفته عند مطابقة الروايات ومقارنة بعضها ببعض .

وورد خبر « ابن سبأ » فى كتاب « المعارف » لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة ؛ وقد تعرض له فى معرض « الفرق » فقال : « السبأية من الرافضة ينسبون إلى عبد الله بن سبأ ، وكان أول من كفر من الرافضة ، وقال على رب العالمين ، فأحرق على أصحابه بالنار[٣] » .

وقد اعتمد أكثر المؤرخين على رواية أبى جعفر بن جرير الطبرى المؤرخ والمفسر والفقيه الشهير ، المتوفى سنة ٣١٠ للهجرة[٤] ، وقد اعتمد عليه أكثر المستشرقين كذلك . نقلوا عنه نقلا بالحرف الواحد ، ونقلوا عنه اقتباساً ؛ فمن أخذ عنه ابن مسكويه صاحب كتاب « تجارب الأمم[٥] » ، والمؤرخ المعروف « ابن الأثير » أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير

(١) البيان والتبيين طبعة حسن السندوبى ج ٣ ص ٤٦ القاهرة سنة ١٩٢٧

(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٤٦

(٣) كتاب « المعارف » ص ٢٦٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٤ ص ٣٠٠ طبعة أوربا .

(٤) الطبرى طبعة أوربا ج ١ ص ٢٩٤٢ ج ٥ ص ٦٦ ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، ومواضع أخرى .

(٥) طبعة Caetani « كيتانى » ج ١ ص ٤٢٨ سنة ١٩٠٩

الجزرى عز الدين صاحب كتاب « الكامل » فى التاريخ[١] ؛ المتوفى سنة ٦٣٠ للهجرة الذى اعتمد على تاريخ الطبرى وضمنه كتابه بعد حذف الأسانيد .

ومن المؤرخين الذين اعتمدوا على الطبرى عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ للهجرة (١٤٠٦ للميلاد) صاحب كتاب « العبر وديوان المبتدإ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر[٢] » ، والعالم الشهير المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ للهجرة (١٤٤٢م[٣]) ، والسيوطى المتوفى سنة ٩١١ للهجرة فى كتابه « حسن المحاضرة[٤] » .

أما رواية الطبرى فترجع إلى السرى عن شعيب عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسى[٥] ، وسنتحدث عن هذه السلسلة بعد أن ننتهى من ذكر المصادر التى تعرضت لخبر عبد الله بن سبأ .

ونجد فى « العقد الفريد » لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى المتوفى سنة ٣٢٨ للهجرة روايات عن عبد الله بن سبأ وعن أتباعه السبأية الذين قال عنهم : « السبائية أصحاب عبد الله بن سبأ عليهم لعنة الله ، وفيهم يقول السيد الحميرى :

قوم غلوا فى علىّ لا أبا لهم ... وأجشموا أنفساً فى حبه تعبا

قالوا هو ابن الإله جل خالقنا ... من أن يكون له ابن أو يكون أبا

وقد أحرقهم على رضى الله عنه بالنار[٦] » .

وقد ذكر ابن عبد ربه رواية أخرى نسبها إلى الشعبى فى حديث له مع مالك بن معاوية جاء فيها « أحذرك الأهواء المضلة وشرها الرافضة ، فإنها يهود هذه الأمة ، يبغضون الإسلام كما يبغض اليهود النصرانية ، ولم يدخلوا فى الإسلام رغبة ولا رهبة من الله ، ولكن مقتاً لأهل الإسلام وبغياً عليهم ، وقد حرقهم على بن أبى طالب رضى الله عنه بالنار ونفاهم إلى البلدان ، منهم عبد الله بن سبأ نفاه إلى ساباط ، وعبد الله بن السوداء نفاه إلى

(١) « الكامل » طبعة مصر ج ٣ ص ٤٨ ، ٦٠ ، ٦٤ طبعة « تورنبك » Tornberg ج ٣ ص ١٢١ ومواضع أخرى .

(٢) راجع الجزء الثانى القسم الثانى ص ١٣٩

(٣) خطط طبع بولاق ج ٢ ص ٣٤٣

(٤) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٩

(٥) الطبرى طبعة أوربا ج ١ ص ٢٩٤٢ ج ٥ ص ٩٨ طبعة مصر

(٦) العقد الفريد طبعة محمد سعيد العريان ج ٢ ص ٢٣٦

الحازر وابن كروس(١) ... » ، وتجد فى رواية ابن عبد ربه شيئاً جديداً لا تجده فى الروايات المتقدمة .

وقد سبق أن أوردنا رواية أخرى عن عبد الله بن سبأ نسبت إلى الشعبى كذلك ، وهى رواية الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » غير أنه لم يسمه « عبد الله بن سبأ » بل دعاه « ابن السوداء » ، وتجد فى رواية صاحب « العقد الفريد » أن الشعبى قد فرّق بين « عبد الله بن سبأ » وبين « عبد الله بن السوداء » فجعلهما رجلين مختلفين نفي أحدهما إلى « ساباط » ، ونفى الثانى إلى « الحاذر » ، وتجد مثل هذا التفريق فى كتب أخرى .

جواد على

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٤١ راجع نفس الرواية فى ضحى الإسلام ج ١ ص ٣٣٤

الانكليز حلقة الشر المفرغة

للاستاذ محمد البشير الابراهيمى

رئيس تحرير (البصائر) الجزائرية

أيها العرب !

إن الإنكليز هم أول الشر ووسطه وآخره ، وإنهم كالشيطان منهم يبتدىء الشر وإليهم ينتهى . وإنهم ليزيدون على الشيطان بأن همزاتهم صور مجسمة تؤلم وتؤذى وتقتل ، وجنادل مسومة تهشم وتحطم وتخرب ، لا لمة تلم ثم تنجلى ، وطائف يمس ثم يخنس ، ووسوسة تلابس ثم تفارق . ويزيدون عليه بأنهم لا يطردون بالاستعاذة وتذكر القلب ويقظة الشواعر ، وإنما يطردون بما يطرد به اللص الوقح من الصفع والدفع والأحجار والمدر ، ويدفعون بما يدفع به العدو المواثب ، بالثبات المتين للصدمة ، والعزم المصمم على القطيعة وبت الحبال ، والإرادة المصرة على المقاطعة فى الأعمال ، والإجماع المعقود على كلمة واحدة ككلمة الإيمان « إن الإنكليز لكم عدو فاتخذوهم عدوا » . يرددها كل عربى بلسانه ، ويجعلها عقيدة جنانه ، وربيطة وجدانه ، وخير ما يقدمه من قربانه .

قد غركم أول الإنكليزى فأعيذكم أن تغتروا بآخره بعد أن صرّح شره ، وافتضح سره ، وانكشف لكم لينه عن الأحساك والأشواك . وقد تمرس بكم فعرف الوالج والخارج من نفوسكم قبل أن يعرف أمثالها من بلادكم ، وحال معادن النفوس منكم قبل أن يحال معادن الأرض من وطنكم ؛ وعجم أمراءكم فوجد أكثرهم من ذلك الصنف الذى تلين أنابيبه للعاجم ، وتدين عروبته للأعاجم .

قد علمتم أنه هو الذى وعد صهيون فقوى أمله ، ولولا وعده لكانت الصهيونية اليوم — كما كانت بالأمس — حلما من الأحلام يستغله (الشطار) ، ويتملل به الأغرار .

وعلمتم أنه انتدب نفسه على فلسطين فكان الخصم والحكم فى قضيتها ، وأنه ما انتدب إلا ليحقق وعده ؛ وأن فى ظل انتدابه ، وبأسنة حرابه ، حقق صهيون مبادىء حلمه فانتزع الأرض منكم بقوة الإنكليز وقوانين الإنكليز ، وفتن ضعفاءكم بالخوف وفقراءكم بالمال حتى أخرجهم من ديارهم ، واتخذ الصنائع والسماسرة منكم ، وبنى المدن بأيديكم ، ومهد الأرض بأيديكم ، وشاد المصانع بأيديكم ، وأقام المتاجر وبيوت الأموال لامتصاص دمائكم وابتزاز أرزاقكم .

وعلمتم أن الإنكليز هم الذين سنوا الهجرة بعد الفتح ليكاثروكم بالصهيونيين على هذه الرقعة من أرضكم ، فلما انتبهتم للخطر غالطوكم بالمشروع منها وغير المشروع . ومتى كانت هجرة الوباء والطاعون مشروعة إلا فى دين الإنكليز ؟

وعلمتم أن بريطانيا هى التى جرت ضرتها البلهاء أمريكا إلى محادتكم وجرأتها على احتقاركم لتكيدها وتكيدكم ، ولتحل بالسياسة ما عقده الاقتصاد بينكم وبين أمريكا من صلات ؛ وأنها هى التى ألبت عليكم الأمم الصغيرة ودويلاتها حتى إذا جالت الأزلام وأيقنت بالفوز أمسكت إمساك المتعفف ، وتظاهرت بالروية والحكمة ، وجبرت خواطركم بالحياد ، وملأت الدنيا تنويها بهذا الحياد الفاضح ، فكانت كالقاتل المعزى ...

يا ضيعة الآداب الإسلامية بينكم ! إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، وقد لدغتم من الجحر الإنكليزى مرات فلم تحتاطوا ولم تعتبروا . وخدعتم من الجانب الإنكليزى كرات فلم تتعظوا ولم تتبصروا . خدع خلفكم كما خدع سلفكم ، واستهوى أمراءكم

وكبراءكم ودعاكم إلى موائده الفقار فلبيتم . وما رأى منكم فى كل الحالات إلا المجاملة ، واستمرار المعاملة ، وما أنس منكم إلا التهافت على أعتابه ، والتعلق بأسبابه .

فيا ويحكم ... أكل ذلك لأن الانكليز أغنياء وأنتم فقراء ، أو لأنهم أقوياء وأنتم ضعفاء . كلا ... إنهم لأغنياء بكم وبأمثالكم من الأمم المستخذية ، وليسوا أغنياء عنكم . وإنهم لأقوياء بما يستمدونه من أرضكم وجيوبكم فاقطعوا عنهم المددين يضووا ويهزلوا ، واخذلوهم فى مواطن الرأى والبأس يتخذلوا ، وعمروا جزوتكم تخرب جزوتهم . إن لبدة الأسد هى بعض أسبابه إلى زرع الهيبة فى القلوب ؛ ولكن لبدة الأسد البريطانى لبدة مستعارة . فلو أن كل أمة استرجعت شعراتها من تلك اللبدة التى تكمن وراءها الرهبة لأمسى الأسد هرا مجرود العنق ممروق الصدر بادى الهزال والسلال .

إن الغنى عمل وتدبير . فلو عملتم لكنتم أغنياء . وإن بدء الغنى من غنى النفس بالتعفف عن الكماليات ، وفطمها عن الشهوات . وإن القوة مشيئة لا جبر ، فلو شئتم أن تكونوا أقوياء لكنتم . وإن بدء القوة من قوة الأخلاق ، وقوة الاتحاد

***

هذا أول الإنكليز عرفتموه ، فهل عرفتم آخرهم ؟ إنهم كانوا أداة تفريقكم فى الماضى ، وكانوا عونا للزمان عليكم ، فلما رأوا شملكم إلى اجتماع ، وجامعتكم إلى تحقق ، جمعوا لكم كل ما عندهم من مكائد ومصائد ... إنهم ينطوون لكم على المظالم ؛ وإن فى جعبتهم ما فى جعبة الحاوى من حيات . وإن فى أيديهم عروق الجسم العربى يضغطون على أيها شاءوا متى شاءوا . فى أيديهم قضية مصر يساومون بها ويماكسون ، وفى أيديهم قضية السودان يلوحون بها ويماكسون ، وفى أيديهم قضية ليبيا يشاغبون بها ويشاكسون ، وفى قبضتهم شرق الأردن بما فيه ، وما شرق الأردن إلا خيط الخنق وشريط الشنق فتله الإنكليز بأيديهم وأمرّوا على الأيام فتله ، لأمر هم بالغوه إن لم تهبوا وتذبوا ، وفى أيديهم العراق ومنابعه ، واليمن وتوابعه ، ولهم على سوريا ولبنان يد ممنونة ، فى طيها مدية مسنونة . وفى أيديهم مفاتيح الجزيرة ، وأمراء الجزيرة ، وقد أعدوا لكل قفل من أقفالها مفتاحاً ، ولكل أمير من أمرائها متودداً من رغبة أو رهبة . ولهم مع ذلك من بينكم العيون الراصدة ، والألسنة الحاصدة . وفيكم مع ذلك الآذان السامعة ، والهمم الطامعة ، وفى سجلاتهم ذممكم وهممكم وقيمكم ، قدروها تقديرا ، وأوسعوها تحليلا وتدبيرا .

إنهم ما حركوا مشروع سوريا الكبرى فى ميقات معلوم إلا ليفتنوا بعضكم ببعض ، ويغروا بيتاً ببيت ، وقريشاً بتميم . فينخرق الإجماع وتفترق الجامعة . وإن هذه النقطة هى أعلى ما يصل إليه الدهاء الإنكليزى ، كما أنها أعسر امتحان للضمير العربى الذى يتمنى أن يتكتل العرب ولكن بدافع من أنفسهم لا على يد عدوهم . وإن الانكليز لقادرون على تحريك غيرها من الفتن المفرقة . وإنكم — أيها العرب — لا تردون كيدهم إلا بإجماعكم على تحديهم ، واجتماعكم على إيقاف تمديهم ، وإقامة جامعتكم على اعتبار مصلحة العرب ووطن العرب فوق الأغراض والأشخاص .

إنكم لا تردون كيدهم بقوة جامعة الدول العربية ، حتى تسندوها بجامعة الشعوب العربية ، فحركوا فى وجوههم تلك الكتلة مترامية يرهبوا ثم يذهبوا .

لسنا فى هذه الكلمة حقائق مريرة ، وأومأنا إلى قضايا يوماً أن نزيد حجمها مدا . ولكن ما عذرنا إذا أمسكنا عن الشرح ، ولو كان فيه جرح ! وقد تأدى إلينا من تراث أجدادنا العرب هذه الحكمة الغالية « من كتم داءه قتله » .

(الجزائر) **محمد البشير الإبراهيمى**

تولستوى الحائر (*)

للأستاذ محمود الخفيف

أتم تولستوى « أنا كارنينا » وقد أصبح فى روسيا أحد رجالها المعدودين ، وفى أدبائها فارسهم المعلم ، وأصبح فى أوربا أحد القلة الأفذاذ من أساتذة الفن وأعلامه . وإنه لذو ثراء عريض ، وذو بنين ، يسكن إلى زوجة اختارها لنفسه عن بينة وحب ؛ وهو إلى ذلك يتمتع بالعافية ، وقد وهبه الله جسماً قوياً لا تسكن حيويته ولا تفتر قوته . وإن موهبته الفنية لتمد اليوم أكثر مدها وإن روسيا كلها لتنظر إليه نظرتها إلى أعظم من أنجبت من رجال القلم فى تاريخها ، حتى لقد اغتدى اسمه لها مفخرة قومية ، واغتدت به تباهى بأن صار لها فى أدب الدنيا صفحة مرقومة ومقام معلوم .

ولكنه بين عشية وضحاها ينظر فإذا بهذا كله عنده لا شيء ، وإذا به يشعر أنه شقى لم يذق مثل شقائه أحد أو يعذب عذابه أحد على الرغم مما يحيط به مما يراه الناس من أسباب السعادة والنعيم .

إنه ليتقلب على فراشه إذا جنه الليل مسهد الجفنين . ولقد يئن أنين المحموم بل لقد يجهش فى الظلام كما يجهش الصبى ؛ وإنه ليثب من فراشه فيذرع الحجرة حتى يتنفس الصبح ... وإنه ليجلس إلى مكتبه مطرقاً أو محدقاً فى الفضاء ، لا يفتح كتاباً ولا يرفع قلماً ؛ وإنه ليمتزل زوجته ، ويتنكر لأبنائه أو يشيح بوجهه عنهم ؛ وإنه ليدفن وجهه ساعات بين كفيه ؛ وإنه ليسرع ذات مرة إلى بندقية صيده فيبعدها ويغلق من دونها باباً مخافة أن يقتل بها نفسه ؛ وإنه ليترك ما يأتيه من رسائل فى غلفها ، ولا يحب أن يلقى أحداً من صحابته ؛ وإن زوجته لتمتلىء فرقاً وحزناً حتى لتكاد تذهب نفسها عليه حسرات ؛ وإن أولاده ليعجبون ولكنهم واجمون ..

ماذا دهاه ؟ إن حاله هذه حال من تلقى ضربة فى الظلام تركته يترنح من الألم ، وكلما أوشك أن يفيق أخذه دوار فتركه



يتخبط ويهذى ، لا يدرى متى يعود إليه صوابه ...

ولكن تولستوى لم يتلق الضربة على حين غفلة ، فإنه منذ صدر شبابه تهجس فى نفسه أسئلة عن الحياة ومعناها ، والغرض منها ؛ ولقد رأينا كيف ألحت عليه هذه الأسئلة وهو فى القوقاز وشغلته آماله وأحلامه بالصيت والأسرة السعيدة ؛ كما شغله عمله على تحقيق هذه الآمال ، وعمله فى التعليم والمجلة والزراعة ؛ ولكن تلك الأسئلة كانت تعاوده بين حين وحين ، وهى فى كل مرة أشد إلحاحاً عليه منها فيما سلف ...

وعظم إلحاحها عليه بعد زواجه فقد كان له قبل الزواج بعض ما كان يزيح عن نفسه هواجسها من أمل حلو . فلما بات الأمل حقيقة ماثلة ، التفتت نفسه إلى ما كان يكربها ..

وظهر أثر تلك المخاوف قوياً أثناء كتابته قصتيه الكبيرتين فيما أجراه على ألسنة بيير والبرنس أندرو وليفن ؛ ولقد خاف ليفن أن يقتل نفسه من اليأس لأنه لا يرى فى الحياة إلا العذاب ثم الموت . .

(*) من كتاب تولستوى — يصدر فى منتصف شهر مايو عن دار الرسالة بالقاهرة .

وكان يصل به الحال أحياناً أثناء كتابته « أنا كارنينا » إلى ما يخيفه ويخيف زوجته كما أسلفنا ، حتى لم يعد أكثر من مرة بينه وبين الجنون إلا خطوة ، وما زاده التأمل إلا حيرة ولا دراسته الفلسفة إلا تشاؤماً وضيقاً ...

وواجهته تلك الأسئلة بعد « أنا كارنينا » مواجهة مخيفة وعاد في إلحاح وفي ضيق يقول لنفسه : لماذا ؟ ما وجودي وما الغرض منه ؟ ما هذا الذي يسمى حياة ؟ ولم كانت الحياة ؟. قال في كتابه « اعتراف » يصف هذه الحال « لقد أخذتني الحيرة حتى لا أدري فيم أفكر ؛ فإذا نظرت مثلا فيما عسى أن أعلمه أولادي قلت لنفسي : وفيم هذا ؟ أو إذا فكرت فيما عساه أن ينهض بالفلاحين سألت نفسي : وماذا يعنيني من هذا ؟ أو إذا ذكرت ما عسى أن أكسبه من صيت بما كتبت قلت : سوف تغدو أبعد صيتاً من جوجول أو بوشكين أو شكسبير أو موليير أو من كتاب الدنيا جميعاً ، فما جدوى ذلك ؟ ولم أحر جواباً قط ، وتلح الأسئلة عليّ حتى ما تقبل ريثاً ؛ فيجب أن تلقى جواباً على الفور ؛ فإن لم أجب عليها صار مستحيلاً عليّ أن أعيش ... ولكنني لم أجد ما أجيب به ... وأحسست أن ما كنت أضع عليه قدمي قد ذهب هباء ، فليس ثمة ما أقف عليه ؛ وما عشت زماناً عليه قد ولى ، ولم يبق لي شيء . وبلغ بي الحال أن أصبحت أنا الرجل القوي الثري لا أطيق أن أعيش ؛ وصارت تدفعني قوة لا تقاوم لأضع لحياتي حداً على صورة ما . ولست أستطيع القول : إني رغبت أن أقتل نفسي ، فإن القوة التي كانت تنتزعني من الحياة كانت أقوى وأشمل وأوسع مدى من أن تكون مجرد رغبة . لقد كانت قوة شبيهة بتلك التي كانت من قبل تربطني بالحياة ولكن في اتجاه عكسي » .

ويصور لنا حاله بإحدى الخرافات قال : « هناك خرافة شرقية قديمة عن سائح أقبل نحوه وحش هائج في أحد السهول ؛ فلجأ هذا السائح هرباً من الوحش إلى جب ناضب ، ولكنه وجد في قاع الجب غولاً قد فغر فاه ليلتقمه ، ولما رأى السائح التعس أنه لا يستطيع أن يصعد من الجب مخافة أن يلتهمه الوحش الثائر وأنه كذلك لا يستطيع النزول إلى قاعه مخافة أن يلتهمه الغول ، فقد أمسك بفرع من النبات انبثق من صدع في الحائط وتعلق به ؛ وأحس بالتعب يدب في يديه شيئاً فشيئاً ، وشعر أنه سوف يسلم نفسه عما قليل لا محالة إلى الهلاك الذي يتربص به من فوقه ومن أسفل منه ، ولكنه لن يزال متعلقاً بالغصن ؛ ثم إنه ما لبث أن رأى فأرين أحدهما أبيض والآخر أسود ، وقد دارا حول ذلك الغصن ، وأخذا يقرضانه ؛ وأيقن السائح أن الغصن لن يلبث حتى يقطع فيسقط هو في فم الغول ؛ وبينما يرى ذلك ، ويعلم أنه هالك لا محالة ، إذ يبصر بقطرات من الشهد على بعض أوراق الغصن فيصل إليها بلسانه ويلعقها ... وهكذا أتعلق أنا بغصن الحياة ، وإني لأوقن أن غول الموت يتربص بي وأنه سوف يمزقني كل ممزق . ولست أستطيع أن أدرك لماذا وقعت في مثل هذا العذاب . ولقد حاولت أن ألعق الشهد الذي كانت لي فيه سلوة من قبل ، ولكنني لم أعد أجد في الشهد ما يلذني ؛ وما برح الفأران الأسود والأبيض ، وهما الليل والنهار يقرضان الغصن الذي تعلقت به ، ورأيت الغول في وضوح ، ولم يعد للشهد طعمه الحلو . وليس أمام ناظري إلا الغول الذي لا مهرب منه والفأران ، ولن أستطيع أن أدير عيني عن ذلك ؛ وليس هذا حديث خرافة ، وإنما هو الحق الذي لا ينكر والذي يفطن إليه كل إنسان » .

لم يجد تولستوي معنى للحياة ، فما هي إلا عبث ، بل إنها واللاشيء سواء ؛ ذلك ما رجع به من طول تأمله ومن طول قراءته شوبنهور وكانت وغيرهما ، وذلك ما أجاب به عن تلك الأسئلة التي ظلت سنين تلح عليه وتعذب نفسه .

وهذا اللاشيء هو ما أفزعه ، ثم إن انتهاءه إليه بعد طول التفكر هو الضربة التي تلقاها في الظلام والتي تركته يترنح ويصرخ من أعماق نفسه الحائرة : ما هذا ؟ أين أنا ؟ ولم جئت هنا ؟ وإلى أين مصيري ؟

لقد اهتدى البرنس أندور إلى الحب كما اهتدى بيير ، واهتدى ليفن إلى السمو بالروح الخالدة والعزوف عن مطالب الجسد الفاني ، ولكن تولستوي خالقهم لم يهتد إلى شيء ، وظل حاله كما كان حال ليفن قبل هداه حين وصفه بقوله « عند ذلك تبين في جلاء أن كل حي إلى فناء وأنه هو نفسه ليس أمامه ما يتطلع إليه إلا الألم ثم الموت ، ثم الفناء الأبدي ؛ ولذلك استقر رأيه على أنه لن يستطيع بعدُ أن يعيش على هذه الحال ؛ فإما أن يجد تفسيراً للحياة أو فليقتل نفسه »

(البقية في العدد القادم)

محمود الخفيف

مشاهدات مسافر :

٢ - ألمانيا بعد الحرب

إلى الدير ....

للدكتور محمد سامي الدهان

هذه « توبنكين » كمهدي بها تحتضن نهر الراين في نحر وزهو فتتلوى حوله الجنائن والبيوت ، وتداعب شطئانه الأبنية والجسور . ولا تزال بيوتها قائمة في هندسة غريبة تتوالى صاعدة من السفح إلى القمة فتكسب الجبل الذي تقوم عليه جمالاً وجلالاً. ولو أتيح لك أن تنظر من القمم حولها إلى المدينة لانبسطت أمامك المدينة الحسناء خلال رقعة من الخضرة والماء فتانة خلابة لم تغير الحرب منها إلا في بيوت سقطت فأصبحت أكواماً ، وحوانيت خلت من البضاعة فغدت خاوية ، وواجهات للمخازن أقفرت إلا من إعلان كبير عن الكمية من الزبدة والخبز والخضار التي توزع خلال الشهر . ويدهشك أن ترى الألمان وقوفاً في صفوف متلاحقة أمام كل بائع ، تنتظر في صبر عجيب نصيبها الضئيل من خبز يناله الألماني ليومه كله ونأتي عليه في غداء واحد ؛ وزبدة ينتظرها الألماني لأسبوع بأجمعه ، ونصيب مثلها في فطور واحد ، ولباس قديم جديد تبعثه عبقرية الفقر والحاجة حياً بعد البلى . ويدهشك كذلك أن ترى نظام المقايضة والمبادلة بين البضائع والحاجيات ، وقد عاد إلى ألمانيا في القرن العشرين بعد أن دفنته منذ قرون .

لا تزال توبنكين موطن الجامعة يقبل إليها الطلاب الناشئون مشغوفين حريصين ، ويعاشون مقاعد المكتبة دءوبين جشمين ، يعملون حتى تضج معدهم الصغيرة بالجوع وأجسادهم الهزيلة من الغذاء . ماتت أفراحهم وحفلاتهم التقليدية حول كئوس الجعة ؛ وخمدت أغانيهم وأهازيجهم في الشوارع والحفلات ، وتفردت النساء والأطفال بالحدائق والحقول لأن الشباب الألماني بين العشرين والثلاثين غائب عن الميدان وهو اليوم في الأسر أو في القبر .

ولا تجد أكثر ما تجد في هذه المدينة إلا شيوخاً وعجزة قد استعملوا للكنيسة أكثر أوقاتهم ، أو للبيوت يزرعون حدائقها الصغيرة ، منها يأكلون وعليها يقتاتون . وما هي إلا سياحة قصيرة حتى يمل المسافر النظر والنزهة ، فيستريح إلى صديق ودود يستمع منه الشكوى والحرمان والشجاعة والأسى .

ولي في هذا البلد أصدقاء مستشرقون منهم ليتمان Littemann وفكتور بور Viktor Burr وفايسفايلر Welrsweiler .

أما الأول فما يزال يبتسم في فلسفة للحياة ، في أسلوب شرقي ، ويتحدث عن ماضيه في فلسطين ومصر بلهجة عربية ، ويعتز بطلابه ، وفيهم آنسة تترجم « الأيام » للدكتور طه حسين بك إلى اللغة الألمانية ، وطالب يؤلف رسالة عن « الفيح القسي في الفتح القدسي » للعماد الأصفهاني ، وآخر يؤلف عن العامة والأزجال ، يسترشدون برأيه في بيته أو في معهد العلوم الشرقية. وهذا وهذا غاصان بالكتب العربية الجليلة النادرة . فمن شاء أن يعود إلى الشرق وهو في ألمانيا فليقصد الرجل . وأما فيكتور بور فهو قيم المكتبة العامة ، يؤلف عن العرب والبيزنطيين في أناة ودقة وعلم عرف بها أساتيذه وأجداده . وأما الثالث فليس في المنطقة ، وإنما وقعت المدينة وكان في « غوتنجن » فأصبح من نصيب المستعمر الجديد . وحظه في هذا كحظ المخطوطات العربية سافرت خلال الحرب من أماكنها إلى مخابىء أمينة . فلما انتهت الحرب أصبحت البلد في دولة ومخطوطاتها في دولة . في الجنوب مخطوطات الشمال وفي الغرب مخطوطات الشرق . ففي كل منطقة مخطوطات المنطقة الأخرى ، فماذا في هذه المنطقة من مخطوطات ؟ لعل أصدقائي من المستشرقين لا يعرفون ذلك بل لعلهم لا يسمون إلى هذه المعرفة في هذه الظروف ...

والألماني يجهل ما يجري في بلاده الآن ، وقد عادت به النكبة قروناً في ركب الحضارة . فقد انقطعت المواصلات الحسنة أو كادت ، وتباطأ البريد حتى لكأنه معدوم ، فالبرقية من برلين إلى غيرها تقطع أربعة أيام أو ستة ؛ والرسالة تطوى المسافات فتفتحها أيد وتغلقها أيد في رقابة غريبة ، فإذا وصلتك فأنت بها سعيد . فليس عجيباً إذاً أن يجهل الألمان ما في منطقتهم من خزائن ثمينة ، ذلك لأن الحكومة النازية نقلت أكثر المكتبات إلى مخابىء نائية وأحاطت هذا النقل بالكتمان ، وحرمت إذاعة الخبر ، ليجهل الحلفاء مواطن التحف ، وليجنبوها غاراتهم المنيفة التي اشتدت في الشهور الأخيرة قبل الانكسار .

واختارت أحد مخابئها هذه القرية ، بين جبال عالية لا تصلها الطائرات فإذا وصلتها لم تنل منها . وليس في هذه القرية الصغيرة ما يحوي الكنوز ويضم التراث ويكفل المخطوطات إلا حصن واحد جبار هو هذا البناء الكبير بناء الدير . فما من سبيل إذاً إلى بلوغ بعض أمنيتي إلا أن أدخل الدير ...

لبثت يومين كاملين أفكر في الدير وفي السبيل إلى الدير ، فقد انقطعت الأسباب بين أكثر المدن الكبيرة فكيف نبلغ هذه القرية ، وليس من قطار مباشر يصلنا بهـا ، وليس من مهاجرين يقصدون إلى الدير ؛ وكيف أقنع من حولي أن ثمة مخطوطات عربية يجب أن أراها ؟ ! جزعت حين عرضت الأمر على أصدقائي من الألمان فضحكوا . إن السكان لا يبلغون المأكل والملبس ، ونحن نفتش عن زينة الحياة وترف العلم ، نحيي الكتب القديمة ونمني بالأوراق الصفراء ، والأشخاص حولنا يتضورون جوعاً ! فما أعجب الدنيا !

استطعت بعد جهد أن أقنع سيارة تقلني في شروط قاسية ؛ بعضها أننا سنقطع أياماً فيما يجتازه المسافر من قبل في ساعات ، والسيارة هي السيارة ، ولكن جهازها اليوم عجيب لا يأكل إلا الخشب وقد حرم «السائل» النادر هو كذلك . فماح السائق إلى برميل كبير يرمي فيه قطعاً من الخشب محترق خلال بعض الساعة فإذا الجهاز يؤذن بالحركة وإذا نحن نمضي في الطريق .

لا أستطيع أن أتصور عواطفي الآن ، ولست أذكر أكان علي أن أضحك أم أحزن . فصوت السيارة غريب ، ودخانها الأسود كان يلفح مع الريح وجوهنا ، فنفرح أن السيارة جادة ، وما هي إلا ساعة حتى تهدد بالوقوف لأن المحرك جاع ، فلنفرغ بعض الكيس من الخشب ولنمض كذلك في مرتفعات ساحرة ووديان فتانة ؛ تنسينا هزل الزمان وسخرية الأيام ، وما يصنع الإنسان بالإنسان حتى بلغنا القرية التي نقصد إليها ؛ وإذا القرية لا تعدو عشرات البيوت في واد جميل عطر ، وإذا بنـاء الدير يقوم في عظمة لحراسة الوادي والإشراف على خيراته .

دخلنا سور الدير ، وقرعنا الجرس ؛ فإذا الكاهن البواب يسألنا عن الغرض والغاية ؛ فتولى صديقي الكلام ورجا عني أن « ألقى الأب الأول » Pater Prior كما يسمونه فهو رئيس الآباء وراعي الدير . فدخلت حجرة الانتظار بين سور القديسين والصلبان ، ولبثت واقفاً واجماً حتى فتح الباب فإذا الأب المنتظر

قد سلخ في السن ، وعلى عينيه نضارتان سوداوان ، وعلى صدره صليبه الذهبي الكبير المتدلي ، فسارعت إلى الأرض جاثياً على الركبة اليسرى واستلمت يده أفتش عن الخاتم الذي أقبله بشفة مرتجفة وقلب مضطرب لئلا يخونني التمثيل فيكشف أمري وتبوء مهمتي بالفشل وأعود أدراجي لا ألوي على شيء .

انفرجت أسارير الرجل المحترم ورحب بي وعرف من لهجتي الألمانية أني غريب وأني قدمت المنطقة لأزور القرية للمرة الأولى ، وأن ليس في القرية من سكن آوي إليه . فالفنادق مستشفيات خاصة بجرحى الحرب ، وأني لاجىء إليه ، وليس من سلطان للاستعمار عليه . فقد وعدت المدنية بأن تحترم الأديان وبيوت الله ، فهو وحده يحكم القرية والدير ، وإليه هنا المرجع والمآب .

فهم الرجل في كلمات ، وأجاب في لطف بالغ ووقار جميل بأن الدير بيت للجميع وأن ما في الدير ملك لله ، وأنه موكل بصحبتي قيم المكتبة فهو دليلي إلى المخطوطات ، وصديقي إلى اكتشاف المخبئات . وقرع الجرس فانحنى كاهن صغير من « الإخوان » ، وانفتل يطلب الأب غالوس Pater Galus وسألني في هذه الفترة القصيرة وقد فهم حرمتي للمكان وغربتي بين السكان ليتأكد أني لست من البروتستانت الكثرة في ألمانيا ؛ فديره للكاثوليك وهم قلة فيها يتكاتفون ويتعاونون . ولست أدري كيف أجبت ، ولست أذكر كيف تكلمت ، وإنما أعرف أن قلبي وقف عن الخفقان لحظة خلت أني أقضي إثرها ، وإني أجبت من غير أن أعلم : أجل يا أبي الكبير أجل ! فرجاني في تبسط جميل أن أصطنع الحرية في طلب ما أريد ، فشكرت له ، وانحنيت على يده ثانية أودعه كما استقبلته لألقى الأب القادم وألقى بين يديه بمقاليد الأمر وماجئت له

وما هي إلا دقائق حتى كنا ننحني في الكنيسة أمام المعبد نقدم واجبات التحية في الاحترام قبل أن يحين العشاء .

ويشاء الله أن تتتابع المراسيم الصعبة في أقل من ساعة . فالدخول إلى المأكل له نظامه في الدير . يدخل الآباء واحداً بعد واحد وهم يرتلون ؛ ويتبعهم الإخوان في أثرهم وهم يرتلون ؛ ثم يدخل ضيوف الدير ، وفيهم ثلاثة طلاب وأستاذان ، وهم كذلك يرتلون ، وأنا ساكت واجم أنظر يمنة وأنظر يسرة في طرف خفي وقلب وجل ، قبل الدخول ، لئلا أخطىء في الحركة وأشذ عن هذا النظام الدقيق .

ووقفنا دقائق أمام المائدة ونحن خشوع سكوت ملتفين حول

موائد طويلة ومقاعد من خشب فى قاعة كبيرة استوعبت مئتين من الآباء والإخوان مع ستة من الضيوف جُعلت فى وسط القاعة ، وحولنا من الجهات الأربع سكان الدير ، وقد أخذوا أماكنهم فى نظام عجيب . وتصدر القاعة الأب الكبير ، فلما أذن لنا ارتمينا على مقاعدنا من غير أن نرفع البصر أو نحرك عضواً من الأعضاء نستمع إلى الإنجيل يتلى علينا من منبر عال باللاتينية ثم بالألمانية . وطاف الإخوان بالأوانى يحملون العشاء فأصبنا ماء ساخناً يسمونه حساء ، وسلطة من العشب الأخضر عليه ماء وملح ، ثم طبقاً من البطاطس المطبوخ ، وختمنا بالحلوى وهى من الخبز الأسود قد تناثرت على بعض أطرافه ذرات من السكر . ولكننا لم نر اللحم ولم نذقه فهو عنا غريب .

وانتهى العشاء الكامل الشامل فأرسلنا الشكر إلى البارى وخرجنا كما دخلنا فى نظام جميل ، وكلٌّ يهنىء رفيقه على الصحة ويسأله عن شهيته فى أكلة اليوم — على عادة الألمان فى آدابهم وولائمهم — .

لم أبال بهذا الغذاء أكان دسماً أم لم يكن لأنى أمنى النفس بغذاء الغد من مخطوطات العرب !

فإلى الغد أيها الآباء ! ..

سامى الدهان

طرائف من العصر المملوكى :

التـــــورية

للأستاذ محمود رزق سليم

التورية ضرب من البديع ، والبديع — بلاريب — فن جميل من فنون القول . سواء اختلفت النظرات إليه أم ائتلفت . إذ الفن فى جوهره مظهر الفنان ومستجاب وحيه ومرتاض عاطفته به يصور وجدانه ويرسم فكرته ، ابتغاء التأثير فى سامعه وهو فى هذا يجرى وفق ذوقه ويسير قيد مزاجه . فإذا نهج على قواعد أخرى فإنما هى قواعد قد ارتضاها هذا الذوق ، واطمأن إليها هذا المزاج . فلا عليه إلا أن يصور ويرسم . فإن بلغ فيه من سامعيه ومعاصريه حد الإعجاب ، فذلك عهده به وأمله فيه ورجاؤه منه . وإلا فقد بذل ما استطاع ، وقدم ما قدر عليه . وهو بين هذا وذاك فنان لا يغض من فنه نقد ناقد ولا إزراء مزر .

ولقد كان فن البديع أغلى فنون الحديث ومسالك الأسلوب عند أدباء العصر المملوكى وشعرائه . ملك على القوم أحلامهم وذلل أقلامهم فلا تجرى إلا بين أرسانه ، ولا تجول إلا وسط ميدانه ، فوردوا موارده وعنها صدروا . ومدوا موائده وإليها ابتكروا . وكانوا بذلك أدنى أدباء عصر إلى تمثيل أهله ، وأقرب شعراء حقبة إلى تصوير معاصريها .

نقول ذلك ، لا على سبيل المبالغة ، بل على سبيل الحق والصدق. ذلك أن الشعب المصرى طبع من عهد بعيد على أن يسلك فى حديثه مسالك البديع ترفيها للخطاب ، وتجميلا للألفاظ ، وتجسيماً للمعانى ، وإلماعا إلى الذكاء وتوقد الذهن ، وإشعاراً بحضور البديهة . فهو يجنس ويورى ويطابق ويقتبس ويضمن ، ولا ينى يبعث فى خلال ذلك النكتة إثر النكتة والفكاهة غب الفكاهة ، فيها دلالات عدة واتجاهات شتى ينم عنها اللفظ بمنطوقه مرة وبمفهومه مرة وبملابساته مرة ، وهكذا .

لا نحاول هنا أن ندرس مبعث هذه الروح فيه ، ولا أن نتتبع أسبابها . ولا نحاول أن نرجعها إلى عواملها الطبيعية من ذكاء ، أو طيب عيش أو طيب مناخ ، أو إلى عواملها الاجتماعية من كبت عاطفة أو مقاساة حرمان أو كمون التياع . أو من حب فى لذة ، أو تطرف فى ترف ، أو غلو فى سرف . أو غير ذلك مما يتطلب له المرء مخرجاً فى القول فلا يجد إلا هذه الضروب البديعية ، ففيها له المتنفس والمراح . يجمع فى أحدها العديد من المعانى ثم يترك السامع يقلبها بين يديه ويختار من بينها ما يلذه ويروقه ، فهو بذلك يحمله على التفكير معه ، ويدفعه إلى مشاركته ، ويسرى بخياله إلى شتى التصورات ، ويتنقل به بين مختلف المعانى ، ويكفيه بذلك فنا .

سرت هذه الروح فى الشعب خلال حديثه حتى كانت له سمتاً وشارة ، وعرفت عنه منذ أمد ، ونمت نمواً عجيباً فى العصر المملوكى . ولعل حياة الزخرف والدهان، التى كان يفيض بها العصر، كان لها أثرها فى هذا النمو العجيب ، الذى نضح على أدباء العصر وشعرائه فكانوا — كما ذكرنا — أدنى إلى تمثيله وتصويره .

واعتقادى أننا – معشر المصريين – لا نزال حتى اليوم ندرج فى هذه المدارج، ونطرق تلك السبل، برغم فراهة كتابنا وحذق شعرائنا وحرية أدبائنا، وإزاحتهم ربقة البديع عن أعناقهم وتغلغلهم وراء المعانى والأفكار، وسـوقهم خلف الدقائق، وأخذهم من الفلسفة وإمعان النظر بنصيب، ظهرت عوارضه على إنتاجهم وأساليبهم. ولـكنى أعتقد أنهم – رغم حسناتهم تلك – لا يمثلون بأساليبهم العصر الذى فيه يعيشون. ومن كان فى ريب من هذا، فليسر فى طرقات القاهرة، وليمر السمع إلى نكات العامة ومحاورات الباعة ومحادثات المارة. فليلج الأسواق الجامعة والمنتديات الحافلة وماشاكلها. فليصت إلى أساليب الناس فى الحديث، وإلى مدى امتلائها بالتوريات اللطيفة والتضمينات الطريفة والتجنيسات والمطابقات والتلميحات وغيرها من محسنات البديع، لاتكاد تخلو منها عبارة، أوتفرغ منها إشارة. والجمهور فى ذلك يصدر عن طبع سليم وفطرة قويمة. فهو يعكس فى أسلوبه تصوراته الباطنة وانفعالاته الخفية الـكامنة – فالى أى مدى صار أدباؤه المعاصرون مرآة له فى مسالك أسلوبه ومناهج حديثه؟

ليست عندى ريبة فى أن أدباء العصر المملوكى أدنى إلى تمثيل عصرهم أسلوبا وتصويرا – كما ذكرت – وإذا كان الشعب فى مجموعه ذائق فى مسالك القول فهؤلاء كانوا ألسنته المتكلمة وعواطفه المـــترجمة. فهم بدورهم فنانون صادقون. ومصورون ماهرون.

وصحيح أن هناك من النقاد الحديثين من وضع لنقده مقياسا يعنى فيه بالبحث عن المعانى المبتكرة والتصورات الجديدة والأفكار المفيدة. كأنه يريد من الشعر ألا يكون إلا فلسفة وإلا حكمة وإلا مثلا، وإلا دستورا صامتا من دساتير الحياة. وأن يكون كذلك فى كل عصر من العصور. وبهذا القياس يزيف أدب العصر المملوكى ويزيف شعره، حتى ليتساءل عن أدبائه وشعرائه ويقول أين كانوا يعيشون؟

والحق أن جلال الأدب فى أسلوبه، وجماله فى طريقة أدائه وأن صدقه فى أن يعبر عن عاطفة الأديب وشعوره، وأن يحسن فى تصويره. ولاريب أن ضروبا كثيرة من البديع تعين الأديب على ماهو بصدده من فن فى التعبير والتصوير، ومن أبرزها التورية والتضمين والجناس والطباق. وهذه كانت من أهم دعائم الأسلوب فى العصر المملوكى.

أنا لا أدافع عن البديع ولا أحدث عن مذهبى فيه. وإنما أحببت له العدل، وأردت له الإنصاف. فقد كان مزاج الأدب وقوام الأسلوب فى عصر من العصور المصرية. ولم يـكن ذلك غريباً منه حينذاك، بل الغريب ألا يـكون. وكيف كان إنتاجه فهو قمين بإعادة النظر فيه من مؤرخى الأدب بيننا. أحب ألا يتأبوا على البحث فيه، وألا يعتروا فى حصافته قبل أن يبدءوا ببحثه فليعيدوا فيه النظر بعـد إحسان الظن به. وبقينى أنهم سينصفونه وسيجدون فيه شيئاً جديداً مفيداً ممتعاً.

والبديع بعد هذا كله، أو قبل هذا كله، فن – بلاريب – جيل، كما أشرنا. وقد استطاع أدباؤه أن يبرزوا بصورة عملية واضحة ما فى هذه اللغة الـكريمة من مزايا ولطائف وضروب جمال فى تكوين ألفاظها وتناسق كلماتها. وأبانوا كيف أقدرهم هذا التكوين والتناسق على التلاعب بالأسلوب والإبداع فى الحديث، فأظهروا ما خفى فى هذه الألفاظ من أسرار، وأشعروا الناس بجمال الترادف والاشتراك والتضاد فيها، وجلوا اللغة فى ثوبها المرن المطاط الذى كثيراً ما يتسع للمعانى المتنافرة التى تندعن الذهن حينا كيفية اجتماعها وطريقة تآخيها.

وكانت التورية أحب أنواع البديع عند أدباء العصر المملوكى وأجل مابرعوا فيه منها. وأفضل ما أبدعوا فيه المعانى، وأجمل ما أحسنوا فيه التصوير، لم يشذ منهم عن هذا النهج شاذ. وصحيح أن الصلاح الصفدى – كما بينا فى مقال النقد الأدبى – أغرم بالجناس وجن به دون أدباء عصره، ولـكنه إلى جانب هذا كان من شعراء التورية. قال ابن حجة الحموى:

«هذا النوع – أعنى التورية – ماتنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الـكتاب. ولعمرى إنهم بذلوا الطاقة فى حسن سلوك الأدب إلى أن دخلوا إليه من باب التورية فإن التورية من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة وسحرها ينفث فى القلوب، ويفتح أبواب عطف ومحبة. وما أبرز شمسها من غيوم النقد إلا كل ضامر مهزول. ولا أحرز قصبات سبقها من المتأخرين غير الفحول.»

وقال أيضاً : « وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا إلى أفق التورية وأطلعوا شموسها . ومازجوا بها أهل الذوق السليم لما أداروا كئوسها . وقيل إن الفاضل هو الذى عصر سلافة التورية لأهل عصره . وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فى نظمه ونثره . فإنه — رحمه الله تعالى — كشف بعد طول التحجب سترحجا بها . وأنزل الناس بعد تمهيدها بساحاتها ورحابها . وممن شرب من سلافة عصره . وأخذ عنه وانتظم فى سلكه بفرائد دره : القاضى ابن سناء الملك ، ولم يزل هو ومن عاصره مجتمعين على دور كأسها . ومتمسكين بطيب أنفاسها . إلى أن جاءت بعدهم حلبة صاروا فرسان ميدانها . والواسطة فى عقد جمانها . كالسراج الوراق وأبى الحسين الجزار ، والنصير الحمامى وناصر الدين حسن ابن النقيب ، والحكيم شمس الدين بن دانيال ، والقاضى محيى الدين بن عبد الظاهر . »

وهؤلاء الأدباء الستة الذين ذكرهم ابن حجة هم من شعراء العصر المملوكى وفى نصف القرن الأول منه تقريباً . وقد توالى من بعدهم أدباء فحول آخرون هم حلبة ابن نباتة ومنهم الصفدى وابن الوردى وابن اللبانة والحلى والاسعردى والعمرى والمعمار ، وتوالت الحلبات من بعدهم — كما سنبينه إن شاء الله فى مقال آخر — وكلهم يسير تحت راية التورية ، وعاصرهم فى بلاد الشام آخرون . قال الصلاح الصفدى يذكر بعضهم :

« وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم ، وتأزر نصرهم ولأن فى هذا النوع هصرهم وبعد حصرهم . كل ناظم تود الشعرى لوكانت له شعراً . ويتمنى الصبح لوكان له طرسا ، والغسق مداداً والنثرة نثراً . ماجلا من بنات فكره خوداً إلا شاب لحسنها الوليد . وسيرها فى الآفاق وبين يديها من النجوم جوار ومن الشعراء عبيد . كالشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصارى شيخ شيوخ حماة . والأمير مجير الدين بن تميم . وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى . ومحيى الدين بن قرناص الحموى . وشمس الدين ابن العفيف . وسيف الدين بن المشد . »

وقال أيضاً : « ولاتقل أيها الواقف على هذا التأليف : لقد أفرطت فى التعصب لأهل مصر والشام . على من دونهم من الأنام . وهذا باطل ودعوى عدوان . وحمية لأوطانك وما جاورها من البلدان . فالجواب أن الكلام فى التورية لاغير . ومن هنا تنقطع المادة فى السير . ومن ادعى أنه يأتى بدليل وبرهان فالقياس بيننا والشقراء والميدان . »

وبعد فما هى التورية ؟ قال ابن حجة يعرف بها :

« هى أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان أو أحدهما حقيقة والآخر مجاز . أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية . فيريد المتكلم المعنى البعيد ويورى عنه بالمعنى القريب فيتوهم السامع لأول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك »

والتورية — كما يرى القارئ — تحتاج إلى إلمام باللغة وإلى نزعة أدبية سليمة ، وإلى الطافة فى الحس . وهى إحدى طرق أداء المعنى . والفرق بينها وبين أداء المعنى فى حيز الدلالات اللفظية هو الفرق بين الأدب واللغة . والمورى مجدد لأنه يضع أمام السامع صوراً من المعانى عدة متشابكة فى بعض أجزائها ، متماسكة فى بعض ملابساتها ، فيدفع السامع إلى التنقل بخياله والتجول بفكره بين صورها الشتى حتى يقع خاطره على المعنى المقصود ، دون أن يشعر بثقل أو يحس بجهد ، بل بالعكس يتنقل بينها كما يتنقل بين أجزاء روضة ، وبين ثنيات بستان ، ويكون لذلك أثره فيه فيلطف حسه ويرق خياله ويتسع تصوره ، وهذه دعائم نفسية تقوم عليها دولة الأدب . وقد نقل ابن حجة قول الزمخشرى فى التورية حيث قال : « ولا نرى بابا فى البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع ولا أعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله وكلام صحابته رضى الله عنهم اجمعين . فمن ذلك قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » لأن الاستواء على معنيين أحدهما الاستقرار فى المكان ، وهو المعنى القريب المورى به الذى هو غير مقصود ، لأن الحق تعالى وتقدس ، منزه عن ذلك . والثانى الاستيلاء والملك وهو المعنى البعيد المقصود الذى ورى عنه بالقريب المذكور »

— ويهمنا من كلام الزمخشرى حديثه عن التورية . أما ما استشهد به من القرآن الكريم ففيه نظر . لأنه كان يدين بالاعتزال .

ومع ذلك فيه نظر من ناحية أخرى ، إذ يعتبر تأويله هنا من باب الكناية مثلالا من باب التورية . وهذا يجرنا إلى الإشارة إلى أن التورية — فى جوهرها وفيما نشعر — ليست فى حدودها الضيقة

التى وضعها فيها علماء البلاغة بل أنها أوسع نطاقا وأبعد آفاقا . أو أنها على الأقل ذات صلة وثقى بأنواع البـلاغة والبديع ، كالـكناية والمجاز والإلغاز والمحاجاة والتوجيه والتلميح والإبهام والجناس ، وأن بينها وبين هذه الأنواع أموراً متشابهة لاتفرق بينها إلا دقائق معنوية ، وهذه الأمور تشعرنا بأنها جميعاً تمت إلى التورية بأوثق الصلات . على أن هذا موضوع يحتاج إلى بحث ومعاودة ونظر جديد . فلنتركه الآن لنطرف القارئ ببعض نماذج التورية التى أثرت عن أدباء العصر المملوكى ، وكثير منها فى الغزل والوصف والشكوى والمدح والإخوانيات . ومنها ما يلى :

كان السراج الوراق مقيما بالروضة ، فكتب إليه نصير الدين الحمامى موريا بها فقال :

كم قـد ترددت للباب الـكريم لـكى
أبل شـــوقى وأحيى ميت أشعارى
وأنثنى خائبـاً ممـــا أؤمله   وأنت فى روضة والقلب فى نار

فكتب إليه السراج الوراق :

الآن نزهتنى فى روضة عبقت   أنفاسها بين أزهار وأثمار
أسكرتنى بشذاها فانثنيت بها   وكل بيت أراه بيت خمار
فلا تغالط فمن فينا السراج ومن   أولى بأن قال إن القلب فى نار

وقال أبو الحسين الجزار موريا بصناعته :

إنى لمن معشر سفك الدماء لهم   دأب وسل عنهم إن رمت تصديق
تضئ بالدم إشراقاً عراصهم   فـكل أيامهم أيام تشريق

وقال الجزار موريا بلفظ « المطوق » :

أنت طوقتـنى صنيعاً وأسمعـــتك شكراً كلاهما ما يضيع
فإذا ما شجاك سجعى فإنى   أنـا ذاك المطوق المسموع

وقال ابن دانيال الموصلى موريا فى « قوام » :

أيا سائلى عن قد محبوبى الذى   فتنت به وجداً وهمت غراماً
أبى قصر الأغصان ثم رأى القنا   طوالا فأضحى بين ذاك قواما

ومن توريات الشاب الظريف فى كلمة « باقل » :

ولو أن قسا واصف منك وجنة   لأعجزه نبت بها وهو باقل

ومن توريات جمال الدين بن نباتة فى كلمة « راحة » :

يا غائبين تملئـــا لغيبتهم   بطيب لهو ولا والله لم يطب
ذكرت والـكأس فى كفى لياليكم
فالـكأس فى راحـة والقلب فى تعب

وقال أيضاً فى « الـكمال » وهو مسمى به :

أرى جاستى عند الـكمال تعيتنى   غبونا ونفسى بالملوم يفوت
وما تنفع الآداب والعلم والحجا   وصاحبها عند الـكمال يموت

وقال متغزلا موريا فى « حمل وقد » :

سألت النقا والبان أن يحكيا لنا   روادف أو أعطاف من زاد صدها
فقال كثيب الرمل ما أنا حملها   وقال قضيب البان ما أنا قدها

وورى محيى الدين بن عبد الظاهر فى « الأوراق » فقال متغزلا :

ذو قوام يجور منه اعتـدال   كم طعـين به من العشاق
سلب القضب لينها فهى غيظى   واقفات تشـكوه بالأوراق

ومن طرائف التوريات ماخرج مخرج الجناس ، قال ابن حجة « قد تقرر أن ركنى الجناس يتفقان فى اللفظ ويختلفان فى المعنى لأنه نوع لفظى لا معنوى . وهو نوع متوسط بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع : والتورية من أعز أنواعه وأعلاها رتبة فإذا جملت الجناس تورية انحصر المعنيان فى ركن واحد ، وخلصت من عقادة الجناس » .

ومن جناس التورية قول بدر الدين الدمامينى يصف ابن حجر العسقلانى :

حمى ابن على حوزة المجد والعلى   ومن رام أشتات المعالى وحازها
وكم مشكلات فى البيان بفهمه   تبينها من غير عجب ومازها

ومازها من ماز يميز أو بمعنى لم يدخله الزهو .

فأجابه ابن حجر بقوله :

بروحى بدر أفق الندى ماأطاع من   نهـاه وقد حاز المعالى فزانها
يسائل أن ينهى عن الجود نفسه   وهاهو قـد بر العفاة ومانهـا

ومانها ، من مانه بمعنى كفاه . أو مانها من النهى .

ويطول المقام إذا ذهبنا نتحدث عن التورية ونستشهد لأنواعها من شعر هذا العصر . فحسبنا ماص .

محمود رزق سليم
مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

من أدب العراق :

المرأة في شعر الرصافي

للشيخ محمد رجب البيومي

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

أما حافظ فقد جعل الأم مدرسة كصاحبه ، وزاد فرفعها إلى قمة عالية فكانت عنده أستاذ الأساتذة الذين ملأوا الدنيا وشغلوا الناس ، كما شبهها بروض زاهر ، يورق ويثمر إذا تعهده الحيا بالري ، وأعلن تبرمه بحالتها الراهنة ، فذكر أنها ليست أثاثاً يقتنى في الدور ولا درراً تصان في الأحقاق ، فيجب أن تتبوأ مكانها في المجتمع . وهو مع هذه الصيحة يحتاط أكمل احتياط ، وينظر إلى البداية والنهاية معاً في وقت واحد ، فيخوف من السفور ، ويحدد مهمة المرأة الاجتماعية ، فهي ربة بيت تنهض بأعبائه ، وتضطلع بشؤونه .

قال شاعر النيل :

أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً ... بين الرجال يجلن في الأسواق
يدرجن حيث أردن لا من وازع ... يحذرن رقبته ولا من واقي
يفعلن أفعال الرجال لواهياً ... عن واجبات نواعس الأحداق
في دورهن شؤونهن كثيرة ... كشؤون رب السيف والمزراق

وإذن فحافظ متحفظ في ثورته ، وكل ما يريده أن تخرج الفتاة إلى مدرستها ثم ترجع إلى البيت الذي تديره ، ولا كذلك الرصافي ، فهو يمشي مع السفور إلى أبعد شوط ، ويرى أن المرأة كالحمامة لها ريش يجب أن تطير به ، وسجع يلزم أن تردده ، وإلا لما خلق الله لها ذلك ، وكان التعلل بالشريعة نغمة متصلة يرددها المحافظون فأطاب الشاعر في دحض هذه الحجة ، وأخذ يكرر قوافيه المتلاحقة في نقضها . ومما قاله في ذلك فوق ما قدمناه :

وأكبر ما أشكو من القوم أنهم ... يعدون تشديد الحجاب من الشرع
وذلك أنا لا تزال نساؤنا ... تعيش بجهل وانفصال عن الجمع
أفي الشرع إعدام الحمامة ريشها ... وإسكاتها فوق الغصون عن السجع
فقد أطلق الخلاق منها جناحها ... وعلمها كيف الوقوف على الزرع

وقصائد الرصافي في هذا الموضوع أكثر من أن تحصر ؛ فقد كان يرى الدفاع عن حقوق المرأة أمانة في عنقه ، يجب أن يؤديها بغير تمهل وانتظار . وقد أفلح الشاعر في دفاعه أي فلاح ، وعاش حتى رأى المرأة الشرقية كما أحب لها من تقدم وصمود ، فماد يمجد في مواهبها ، ويبالغ في مكانتها ويفخر بنهضتها التي تمت في وقت يسير . وما ظنك بزارع كادح بذل جهده الدائب في شق التربة وغرس الثمرة ، وصادف من الصخور ما كاد يهشم معوله ، ويبدد قوته وما زال يتعهد غرسه بالماء حتى رآه — بعد لأي — جنة مورقة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، هكذا كان معروف ! !

وهنا نتساءل بعد ما أسلفناه من جهاد الشاعر عن موقفه العاطفي من المرأة ، وهل ملكت يوماً زمام فؤاده ؟ وماذا أوحت إليه من فاتن الغزل ورقيق النسيب ؟ ؟

وقبل كل شيء نذكر أن الرصافي قد تزوج مرة واحدة في حياته ، أثناء إقامته بتركيا ، ولم يكتب له التوفيق كزوج مسؤول ، فطلق امرأته بعد مدة وجيزة ، وألقى العبء عن كاهله كما صنع شاعر النيل ؟

كما لم يحدثنا أحد من معارفه بأنه أحب فتاة معينة ، أو أنشأ علاقة مع امرأة بذاتها ، وإن كنا نعلم أنه كان إباحياً متحللا يبحث عن شهوات الجسد من أي طريق . وأنت تنظر إلى ماروى عنه من صادق النسيب ، فتجده ينظر إلى النساء بمنظار واحد ، فهو يغازل هذه وتلك دون أن يدخر في قلبه شجناً مبرحاً ، أو لوعة حارة . وإذن فمعروف يهوى الحسن مجرداً عن ذاته كما يراه في كل لون ووضع ؛ فهو يحب البيضاء إذ تتألق كالبدر ، ويعشق الحمراء إذ يتذكر بها طلوع الشمس ، ويميل إلى السمراء والصفراء جميعاً في وقت واحد !! وقد يظن بعض الناس أن هذا خيال شاعر لا حقيقة له ، والواقع غير ذلك ، فالجمال لا يقف عند لونه ، وإنما يتمداه إلى الخفة والمرونة . وكأني بالرصافي وقد وجد قلبه أعظم من أن يختص بواحدة ، فهام بجميع الملاح . اسمعه يقول

وقفت عليكن قلبي الذي ... يمر به الحب مر السحاب
فمنكن أحببت هذي وتي ... والفيت عذبا بكن العذاب
فمنكن بيضاء ما مثلها ... (عدا حمرة الخد) ألا القمر
فتلك التي طاب لي وصلها ... كليلة البدر طاب السمر

ومنكن حمراء جذابة   حكى وجهها الشمس عند الطلوع
أرى عينها وهي خلابة   فأمسك بالكف مني الضلوع

ومنكن صفراء في لونها   كأن قد تردت شعاع الأصيل
إذا ما تمشت على ضعفها   أصحت هبوب النسيم العليل

ومنكن سمراء تحكي الدمى   وتبعث في القلب ميت الهوى
على شفتيها يلوح اللمى   فتوقد في القلب نار الجوى

ومنكن من هي مثل الرياح   لها في ذرى كل قلب هبوب
تريد غلاب جميع الملاح   وتبغي عذاب جميع القلوب

فمنكن طرا بوادي الهوى   أهيم وإن لم تعد عائدة
ألا إن حبا بقلبي انطوى   كثير فلم تكفه واحدة

وطبيعي أن يكون الرصافي فناناً ماهراً في نظرته إلى المرأة ، فهو يصفها في دقة وحذق وكأنما أحاط بحركاتها واحدة فواحدة .

وقد صور ملهى للرقص في بغداد ، فكأننا نراه في القاهرة ، والذي يهمنا منه تلك اللوحة الرائعة التي رسمها للراقصة الفاتنة ؛ فقد تكلم عن ثوبها الحريري تخيل إلى أنه حائك ماهر يصفه لزميله كي يصنع مثله . وانتقل إلى حركاتها السريعة فكاد يسبقها في الخفة والوثوب ، على أنه يطير معها في المجيئة والذهوب ، وإن أترك القارئ ، حتى أضع أمامه جانباً من هذه اللوحة ، فالفن يشوه بالتلخيص أقبح تشويه ، قال معروف :

خطرت والجمال يخطر منها   في حشا القوم جيئة وذهوبا
وعلى أرؤس الأصابع قامت   تتمطى تبخترا ووثوبا
يمس الأنس أن تروح ذهابا   ويميد ابتسامه أن تؤوبا
نحن منها في الحالتين نرانا   نرقب الشمس مطلعاً ومغيبا
حركات خلالها سكنات   يقف العقل بينهن سليبا
وخطى تفضح العقول اتساقاً   نظمتها تسرعا ودبيبا
لو غدا الشعر ناطقا بلسان   لتغنى بوصفها عندليبا
أظهرت في الجمال من كل عضو   لعبا كان بالعقول لعوبا
مشهد فيه للحياة حياة   تترك الواله الحزين طروبا

وله من هذا السياق النضيد شيء كثير .

هذا وقد رأيت بعض من كتبوا عنه غب وفاته يعدون ما تنزل به في المرأة تقليداً واحتذاء ، وحجتهم في ذلك أن الشاعر لا يهدف إلى فتاة معينة ، وأنا أقول : إن من الخطأ البين ألا نفرق بين ما تفتتح به القصائد من عبارات التشبيب وبين ما يجيش بصدر الشاعر فيهتف به . نعم قد يكون الأديب في إنتاجه متجها إلى عناصر غير الحب واللوعة ، ولكن هل يكون معنى ذلك أنه تناسى عاطفته التي تختلج في خفاياه ، وتتجاهل غريزته التي تموج في خلاياه ، فإذا قال غزلا فاتنا قيل له من فتانك ؟ ما اسمها ؟ وفي أي بيئة نشأت ؟ وبأي ثقافة تميزت ؟ وإذا مر الشاعر في طريق مزدحم ، فوقعت عينه على حسناء ساحرة ثم اختفت عنه في لجج الزحام الحاشد ، دون أن يعلم عنها أي شيء ، أنقول له : حطم يراعك ، ومزق طرسك ، لأن فتانك غير معروفة باسمها وصفتها فلا ينبغي أن تنسب بها وإلا كنت صانعا أي صانع ! ! هذا والله شيء عجيب !!

إن شاعراً يحترم فنه كمعروف لا يمكن أن ينشئ غزلا دون أن تشتجر في صدره العواطف ، ولنا أن نعد من تشبيبه التقليدي ما يجيء عرضاً عن المرأة في موضوع خاص ، يهدف إلى فكرة خاصة ، لا تتصل بالحب من قريب أو بعيد ، كقوله في قصيدة « العالم شعر » :

وبيضة خدر إن دعت نازح الهوى   أجاب ألا لبيك يا بيضة الخدر
تهادت تريني البدر محدقة بها   أوانس إحداق الكواكب بالبدر
فلله ما قد هجن لي من صبابة   ألفت بها طي الضلوع على الجمر
تصافح إحداهن في المشي أختها   فنحر إلى نحر ، وصدر إلى صدر
مررن وقد أقصرت خطوي تأدبا   وأجمعت أمري في محافظة الصبر
فطأطأن للتسليم منهن أرؤسا   عليها أكاليل ضفرن من الشعر
فألقيت كفي فوق صدري مسلماً   وأطرقت نحو الأرض منحني الظهر
وأرسلت قلبي نحوهن مشيعاً   فراح ولم يرجع إلى حيث لا أدري
وقلت وكفي نحوهن مشيرة   ألا إن هذا الشعر من أجل الشعر

فهذه الأبيات من قصيدة وصفية ، نظمها الرصافي ليبين أن الطبيعة ديوان شعري ممتاز ، وأخذ يقلب صفحات الديوان ، فرأى في سكون الليل قصيدة ساحرة عدها من (أحسن) الشعر ، ورأى في طلوع الشمس قصيدة بارعة عدها من (أبدع) الشعر ، ورأى في وحشة المقابر قصيدة باكية عدها من (أفخم) الشعر ،

اتجه إلى المرأة فنظم الأبيات المتقدمة لأنه يرى فى ركب حواء قصيدة ساحرة من (أجمل) الشعر ، وإذن فالكلام هنا عن المرأة تقليدى سانق ، حيث لم تكن صاحبة الفكرة التى تقوم عليها القصيدة . ومن الظلم البين أن نسحب هذا الحكم على جميع ما ترنم به معروف عن المرأة . وليت شعرى من ينكر صدق العاطفة فى قوله عن فتاة مجهولة .

فتنت الملائك قبل البشر   وهامت بك الشمس قبل القمر
وسرّ بك السمع قبل البصر   وغنى بك الشعر قبل الوتر
فأنت بحسنك بنت العبر

يروح الشتاء وتصحو السما   ويأتى الربيع بما نمنما
فيطلع فوق الثرى أنجما   ويبتسم الزهر بعد النما
فأنت ابتسامة ذاك الزهر

فطرفك بالفتر كم قد روى   نشيد الغرام بهد القوى
وما أنت شاعرة فى الهوى   ولكنما الشعر فيك انطوى
فآية حسنك إحدى الكبر

فهذا الشعر لوروى لشاعر ممن اشتهرت صاحبته لعد من قوافيه المختارة ، فهل يليق بعد ذلك أن نتساءل عن الملهمة ، من هى ؟

فإذا لم نجد الإجابة الواضحة ، حكمنا على الشاعر بالتقليد والصنعة دون تريث !! الحق أننا سطحيون .

ولا بد لنا أن نتكلم عن اتجاه الرصافى فى أقاصيصه الاجتماعية فقد جعل المرأة عنصر الأقصوصة الهام ، فلا مناص له من أن يصور خوالجها الهامة ، ونوازعها الراجفة ، مما يتطلب دراسة عميقة لنفسية حواء . ولهذا كان الشاعر فلسفى النظرة دقيق المنحى ، وإن خدع قارئه برونق الديباجة وسلاسة التركيب . ولو ذهبنا نستقصى ما روى له فى هذا المضمار لا متدبنا حبل البحث ، ولكننا نضع أمام القارىء قصيدة « أم ليتيم » كنموذج لطريقة الشاعر ، فهو يريد أن يندد بالتحزب الدينى ، والتعصب المذهبى ، وما يجر ذلك من نقص فى الأموال والأرواح ، فقام فى قصته برحلة إلى الأحياء المدمة ، فى هدأة الليل ، وسمع أنيناً مؤلماً يرن فى كوخ بائس فعرفه ، حتى إذا بدأ الصبح أتاه ، فرأى به أرملة حزينة — هى بطلة قصته — وأمامها طفل جائع تعلله بالطعام ، وندع معروفاً يصف لنا الأم الجائعة وما وقعت فيه من التناقض الغريب ، حيث جمعت بين الضحك والبكاء فى لحظة واحدة ، فهو يقول .

وقفت لديها والأسى فى عيونها   يكلمنى منها وإن لم تكلم
وساءلتها عنها وعنه(١) فأجهشت   بكاء وقالت أيها الدمع ترجم
ولما تناهت فى البكاء تضاحكت   من اليأس ضحك الهازئ المتهكم
ولكن دموع العين أثناء ضحكها   هواطل مهما يسجم الضحك تسجم
فقد جمعت ثغرا من الضحك مفعما   إلى محجر باك من الدمع مفعم
فتذرى دموعا كالجمان تناثرت   وتضحك عن مثل الجمان المنظم
فلم أر عيناً قبلها سال دمعها   بكاء وفيها نظرة المتبسم
وقلت وفى قلبى من الوجد رعشة   أمجنونة يا رب فارحم وسلم

ويسير الشاعر فيذكر حنان الأم الرءوم وكيف ضمت إليها ابنها فى شفقه وعطف ، وماذا قال لها الطفل وهو يسأل عن أبيه ؟ وكيف أجابته بما يريده الشاعر من أقصوصة فوصفت ما دار بين المسلمين والأرمن من مذابح تجرى دماؤها باسم الدين ؟ استمع إلى كل ذلك فى قوله .

وظلت له(٢) ترنو بعين تجودها   بفذ من الدمع الغزير وتوأم
سلى ذا الفتى يا أم أين مضى أبى   وهل هو يأتينا مساء بمطعم
فقالت له والعين تجرى غروبها   وأنفاسها يقذفن شعلة مضرم
أبوك ترامت فيه سفرة راحل   إلى حيث لا يرجى له يوم مقدم
مشى أرمنيا فى المعاهد فارتمت   به فى مهاوى الموت ضربة مسلم
على حين ثارت للنوائب ثورة   أتت عن حزازات إلى الدين تنتمى
فقامت بها بين الديار مذابح   تخوّض منها الأرمنيون فى الدم
ولولاك لا خترت الحمام تخلصا   بنفسى من أتعاب عيش مذمم

ومهما يكن من شىء فالمقام لا يسمح أن نلم بغير هذه القصة الشجية ، ذات المغزى الرائع ، مما نظمه الشاعر الكبير ، ففى كل قصة منظر مختلف لفتاة بائسة ، داهمتها الخطوب . ولا ضير على الرصافى إذا أكثر من تصوير هذه المآسى الدامية فقد نشأ فى أمة مزقتها العلل ، وتحرشت بها الأحزان ، فتقاطرت من عينه الدموع ! !

أين أنت يا معروف ؟ وكيف خمدت جذوتك الملتهبة ، وسكن فؤادك الخافق الجياش ؟ ووقف ذهنك الموار .

سكت فلم نسمع غناءك مشجياً   فيا بلبل القطر الشقيق ترنم !

(بالكفر الجديد)   **محمد رجب البيومى**

(١) ، (٢) الضمير فيهما تعود إلى الطفل .

ترجمة وتحليل :

١ – أمنية الشاعر !

للأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

... أما الشاعر فإنه مفخرة الأدب الفرنسي « ألفونس دي لامرتين » ، وأما الأمنية فإنها قصيدة عصرها من حبة قلبه ، فكانت زفرة حرّى تحترق بلهيبها عبرات الذواقين لهذا النوع من الشعر المثالي الرفيع .

وهذه الأمنية تصوير دقيق لما يجيش في نفس الشاعر المرهف الحس الذي لا يني يعبر بشعره عن الآفاق التي يدرك عظمتها ولا يصل إليها مهما بذل من الجهد ، وعن العوالم التي يحس روعتها ولا يبلغها مهما ارتقى في الأسباب .

نظم لامرتين هذه القصيدة – كما حدث عن نفسه – « في فترة من حياته تحولت فيها فكرته – التي كانت لا تتوخى غاية ، ولا تعين أمنية ، ولا تمنى بهذه الأرض ومن عليها – تحولا طبيعياً منتظراً نحو السماء وبانيها ، ونحو الطبيعة وبارئها ، فأمست أناشيده كلها دينية . يومئذ عرف أرواحاً كانت تقواها ثمرة دموعها ، وعرف أرواحاً أخر كانت عبادتها كأريج الربيع الفواح تحت أضواء الشمس المشرقة التي تمتع القلب بالبشر والسرور . ولقد أحب أن تكون روحه من هذه الأرواح الأخر .

حطم الألم أعصابه ، ورده صامتاً لا يبين ، جاحداً لا يؤمن ، يائساً لا ينتج . ثم أقبلت عليه السعادة بعد إدبار ، فحببت إليه الإيمان وزينت في قلبه الحنانه ، فعاد ناعم الفكر ، رخي البال (*)

في تلك الفترة التي عاد فيها إلى إيمانه أو عاد إليه إيمانه نظم قصيدته في مدينة من مدن إيطاليا تسمى (ليفورن) (Livourne) سنة ١٨٢٧ . ولست أدري ما الذي ربط قلبي بقلب لامرتين ، فما تأملت إحدى قصائده إلا أحسست كأنه ينظمها بلساني أو أنثرها عن لسانه ، أو يكتبها من لوحة قلبي وأتلوها في لوحة قلبه ؛ وما أريد بهذه الكلمة أن أعلو بنفسي إلى أفق هذا الشاعر العظيم في روعة تصويره ، وسحر خياله ، فما ينبغي لي هذا ولا أستطيعه ؛ إن أريد إلا أن أتيح لقلمي بعض العذر في ترجمة قصائده وتحليلها كلما وجدت فراغاً ، وآنست رغبة .

لم يبح لامرتين لنفسه تصوير أمنيته إلا بعد أن أعلن عجزه ، واعترف بعي لسانه : فشعوره أسمى من أن يترجم عنه ما تيسر له من الكلمات المحدودة ، وتفكيره أعلى من أن يذيعه لسانه العيي الذي لا يحسن الابتكار والتوليد .

١ – « آه ! لو كانت لي كلمات وصور ورموز
لترجمت عن شعوري !
ولو كان لساني العيي قادراً على التعبير
لأذاع تفكيري ! »

أما وقد أبت الكلمات الحية ، والصور الناطقة ، والرموز الوضحة ، أن تواتيه وتكون مطواعاً لقلبه ولسانه – فليس أمامه إلا سلوك المنهج الذي سلكه الشعراء من قبله – وسوف يسلكونه من بعده – فليمثل مثول الخاشع الخاضع بين يدي السماء ، وليصف حكمتها بأرفع ما يجري به لسانه من آي المديح والثناء ؛ فالتقديس لها ، والسرمدية عنها ، والأزلية منها ، لأنها ما أخرجت من ظلمات العدم شيئاً إلا أدخلت عليه نور الحياة ، ولا أبدعت للوجود كائناً إلا علمته لحناً ينشده فيطرب ، ولا بثت في السقف المرفوع كوكباً إلا أنزلت عليه وحياً يتلوه فيرضى ، ولا حددت المسافات موضعاً إلا جملت له مغنى تصدح بلابله فيشجى السامعون .

٢ – « إنها الحكمة قدسية سرمدية وروح أزلية ،
تمد العالم كله بالحياة !
فللكل كائن لحنه ، ولكل كوكب وحيه ،
ولكل موضع مغناه ! »

ويمضي لامرتين في تأمله فيرى أن ينبوع هذه الأنغام كلها نغم واحد ، ولكنه ليس عادياً توقعه أنامل العاديين ثم يفتر بفتورهم ، ولا عبقرياً تتلاعب به قلوب العباقرة فيختنق بموتهم ؛ وإنما هو نغم خالد لا يفتر ، قديم لم يتغير ، أزلي لن يختنق . أخذ من عيون الطبيعة سحراً يسبي القلوب ، ومن وقارها هيبة تأسر النفوس ، ومن خلاقها العظيم رهبة تعجز العقول . ومع أن جرس هذا النغم رتيب لا يتبدل فإنه حلو في الإسماع كلما تكرر ازداد حلاوة .

٣ – « ما لهؤلاء إلا نغم واحد ، ولكنه كالطبيعة ساحر مهيب ،
وكخلاقها عظيم ذو جلال !
وإن هذا النغم الخالد ، بجرسه الرتيب ،
لمحبوب يا إلهي في كل مجال ! »

(*) Harmonies Poétiques et Religieuses p 302

وكيف لا يكون هذا النغم محبوباً وهو موسيقى مختلفة الإيقاع ؟ فمنه صوت الرياح إذا هبت تداعب الأمواج ، وصوت البحر إذا تنهد شوقاً أو زمجر ضجراً ، وصوت الصاعقة إذا توعدت انذاراً ، ودوت غضباً . . وهل من غبي بين البشر لا يعرف ماذا تعني هذه الأصوات ؟

٤ — « فإذا الرياح هبت على الأمواج ، وإذا البحر تنهد أو زمجر ،
وإذ الصـــاعقة قدمت بالوعيد ...
ليت شـــعرى ، هـــل من غبي بين البشر ،
يســـأل عما تريد ؟؟ . . . »

كلا ... لن يسأل عن مرادها سائل ، فإنها تفصح بلسان مبين عن كل ما تروم : فما مداعبة الرياح للأمواج ، وما تنهد البحر وزمجرته ، ولا دوى الصاعقة ووعيدها ، إلا مظاهر من رحمة الله وقهره ، تتجلى تارة في جلاله وقدرته وفضله ، وتارة في غضبه وانتقامه وعدله . ولو سألت الرياح عن أغانيها ، والبحار عن تأوهها وأنينها ، والصواعق عن إنذارها ووعيدها ، لقالت : إنها تسبح بحمد الله ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ؛ ولتداعت إلى الفرار إذا ذر شارق من نور وجهه ، أو لاح بارق من نور ظله ؛ ولتنادت إلى السكوت ، واجتمعت على الإصغاء ، وانثلت لسماع النغم الوحيد الذي يرسله من لدنه ليملأ الدنيا ألحاناً وأغاريد !

٥ — « قال قائل منها : يا لجلال الله ! وقال ثانيها : يا لقدرته وفضله!
وقال آخرها : يا لغضبه وانتقامـــه !
ثم ولى أحدها هارباً من إشراق وجهه ، وقال آخر : قد لاح بظله!
أيتها السموات والأرض أصيخي لكلامه! »

بيد أن الفرق واضح بين الإنسان وهذه الطبيعة ، فإن هذه تنطق بلسان الحال فيغنيها عن لسان المقال ، وذاك أوتي لسان المقال ليعبر عن لسان الحال ، ومقاله متوقف على الألفاظ ، وما الألفاظ إلا قوالب للمعاني لا تنبض بالحياة ، ولا جناح لها فتحلق في الأجواء ، أو تنطلق في الآفاق ، كهذه الطيور التي تهيم في كل مكان ، وتحط على كل شجرة ، وتهبط كل واد ، وتعلو كل جبل ، وترى كل شيء . ولئن كانت فكرة الإنسان خالدة لا تموت — لأن موحيها الحي القيوم كتب لها الحياة — فإن ألفاظه المعبرة عنها لأصداء ترجع الأصوات ، وما كان لصدى أن يدوم ، فلا يلبث أن يزول .

٦ — « لـكن الإنسان الذي خلقته ، هذا الذي يفهم الطبيعة ،
لا يتهدى بغير الألفاظ إلى المعاني الرفيعة ؛
« وإن ألفاظاً فاقدة الحياة مهيضة الجناح ، إذا قيست بفكرته التي لا تموت
كانت أصـــداء وشيكة الســكوت ! »

مسكين هذا الإنسان الذي ينشد الحقيقة فلا يظفر إلا بصداها ، ويروم الانطلاق من سجنه والتفلت من قيده ، فيضرب بينه وبين رغبته بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب : فمثله كمثل العاصفة يحدق بها الغمام من كل جانب ، ويطبق عليها من كل مكان تمانده فيضحك ، وتحاول تمزيقه فيبتسم ، وتود لو انفجرت لتفارقه فيصفح عنها لتلازمه ، فلا هو بتاركها منفذاً ، ولا هي بقادرة على الفرار . أو كالموجة محبوسة في هذا البحر العميق تود لو رأت عالماً سواه ، إلا أن الشاطئ يقف في طريقها سداً منيعاً ، فتثور في وجهه فتلطمه لتتغلب عليه فلا يتزحزح ، وتهدأ ثائرتها فتغسل قدميه لتسترضيه فلا يبالي ، وتعيد الكرة من غير أن تصيب نجاحاً ، فتيأس من العلو عليه ، وتقنع بسجنها قناعة العاجز الساخط ، لا قناعة الراضي المقتدر .

٧ — « روحـــه كالعاصـــفة . . . في الغمام تزجر ،
ولا تســـتطيع أن تنفجـــر
أو كالموجـــة الحبيسة تلطم الشـــاطئ وتجلوه ،
ولا تســـتطيع أن تعلوه ! »

واللوم على كل حال روح الإنسان لا ملهمها ، لأن هذه الروح مغرورة تحاول أن تجتاز الحد الذي وضع لها ، فيدركها التعب ، ويسرع إليها الضنى : تريد أن تبرهن على قوتها وهي ضعيفة ، وعلى علمها وهي جاهلة ، وعلى مقدرتها وهي عاجزة ؛ فهي كهذا النسر الصغير الذي لم ينبت ريشه بعد ، يريد أن يطير كما تطير النسور ، ويريد أن يسابقها منذ تفتحت عينه على عالم النور ، ولـكنه يتبين ضعفه فيقنع نفسه بالوثوب على الأرض ، ثم يتبين عجزه فإذا هو قانع بالترفق في دبيبه ، يمشي مشية الحذر ، ويبطئ إبطاء الذي يزحف شاكاً مستريباً .

٨ — « وتتعب نفسها وتضنيها كأنها نسر صغير ،
لم ينبت له بعـد شـكير
تتفتح عينـه على عالمه ، فيـترفق في الدبيب ،
ترفق الزاحف المستريب ! »

(البقية في العدد القادم)

صبحي ابراهيم الصالح

عبد القادر الحسيني !

للأســـتاذ أحمد مخيمر

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . . . »

نلت الشهادة فاهنأ أيها البطل بمثل عزمك تبنى مجدها الدول
أمامك الجنة الخضراء تفتحها لك الدماء التى أهرقت والأسل
السابقون من الأبطال قد دخلوا
والصاعدون من الأحرار قد وصلوا
ودوا لحب الوغي لو أنهم رجعوا ليقتلوا مرة أخرى ، كما قتلوا
يعانقون ظباها ، وهى هاوية كأنما الطعن فى لبَّانهم قُبل
مستلقون على أنهارها زمراً ، وفوق أرواحكم من خلدها ظُلل
والدوح يرقص والأنوار هامسة والطير تدنو، وتستملى، وترتجل

يا ابن الحسين! دموع الحزن جارية ونارها فى طوايا القلب تشتعل
على شبابك نبكى لوعة وأسًى وإن يكن لحياة الخلد ينتقل
شمس طوتها المنايا وهى مشرقة صبحاً ولم يدن من آفاقها الطفل
وزهرة من نضير الزهر ذات ندى لم يشبع الفلُّ منه غصنها الخضل
على ابتسامك ، والهيجاء عابسة والنار تصرخ، والأسياف تقتتل
على اقتحامك، والأبطال شاكية وللدماء على أبدانها سبل
على إرادة مرهوب العزيمة ، لا ريث إذا طمت البلوى، ولا عجل
كأنها هَبَّةُ الإعصار جارفة ، ودفعة السيل، والعسَّالة الذُّبل
إن يقتلوك فبالذل الذى شربوا من راحتيك، وبالضيم الذى نهلوا
ملأتهم بظلام الخوف؛ فانطلقوا وفوق أعينهم من ليله سدُل
من لا تبادره بالسيف بادره من نفسه القاتلان الجبن والوجل
لو لم يُعنهم بنو التاميز ما حملوا رمحاً ، ولا قاتلوا لو أنهم حملوا
أخس ما شهدته الأرض من أمم كأنهم من قرار الذل قد جبلوا
الموت ما ولدوا، للقبر ما حشدوا، للخسر ما بذلوا ، للضيم ما نسلوا
الذائقون على كفَّيك مصرعهم والتائهون ، فلا سهل ولا جبل
والكاذبون إذا أبطالكم صدقوا والقائلون إذا شجعانكم عملوا
والحاشدون ألوفاً لا غناء بها يوم الصدام ، وخير منهم رجل
لهم من الحرب أغلال، ومسكنة، وذلة ، ولك الأسلاب والنفل . .

يا حامى القدس من كيد يُرادُ به خلا العرين، ومات الضيغم البطل
أغناك عزمك عن نظم ، وعن خطب
فلم تزل بلسان السيف ترتجل
أرسلتها كلمات منه دامية حمراء آذانها الأخلاد والقلل
بريقها وهى تهوى فى مقاتلهم بلاغة خشيت لألائها المقل
لو لم تكن بك قد هامت مضاربه لما غدا وله من حزنه ألل
بكى . فأبكى، ولم تبرح مدامعه لما قضيت مع الباكين تنهمل
يرنو لشبليك محزوناً ، ونائحة وراء نعشك ثكلى شفها الخبل
قد أذهلتها المنايا ، فهى حاسرة بين الحشود ، فلا خدر ولا كلل
لم يُبق فى قلبها التوديع من جلد إن الفراق بغيض ليس يحتمل !

يا حامى القدس، دعهم يشمتون فما يستأخر العمر يوماً إن دنا الأجل
فى حومة المجد والأرماح مشرعة لقيت حتفك ، والأبطال تنتضل
فما جبنت على يأس ، كما جبنوا ولا خذلت على روع كما خذلوا
ولا أدرت وجوه الخيـــل مدبرة
فى الموقف الضنك من خوف وقد فعلوا
وليس أشرف من موت حظيت به
والنصر دانٍ إلى عينيك مقتبل
والنقع فوق رءوس القوم يثقله من الدماء التى أهرقتها بلل
وللكماة على أسلابهم فرح ، وللسيوف على أشلائهم زجل
وراية العرْب تستعلى ، ورايتهم ممزق جانبيها العار والخجل . .

يا ابن الحسين تحيات نرددها
ما أشرق الصبح ، أو ما بيضت الأصل
غامرت فى الشرف الأعلى ففزت به وجاذباك إليه الحب والأمل
ونلت فى حومة الهيجاء ما طمحت
يوماً إلى مثله آباؤك الأول
جنات عدن إلى لقياك ظامئة والسابقون لدار الخلد، والرسل
من لؤلؤ قصرك الثاوى على شرف
يرف فى ساحته البشر ، والجذل
والماء من ربوات الخلد يدفعه لظله الأبد المذخور والأزل
والظل بالماء فى الشطآن مقترن والماء بالقصر دون الظل متصل
وللملائك تسبيح وهينمة كما ترنم شاد بالهوى زجل
فانعم بخلدك فى أبهائه فرحاً إن الخلود جزاء أيها البطل . .

(الزقازيق) أحمد مخيمر

الأدب والفن في أسبوع

جوائز فؤاد الأول :

كان يوم الأربعاء ٢٨ إبريل الماضى يوم الذكرى الثانية عشرة لوفاة المغفور له الملك فؤاد الأول . وفى ذكرى فؤاد الأول احتفل بتوزيع جوائز فؤاد الأول فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة فؤاد الأول ، وهكذا اجتمعت كل هذه المعانى فى هذا اليوم المشهود كما قال معالى وزير المعارف فى كلمته التى افتتح بها الحفل . ثم أعقب معاليه معالى الأستاذ على عبد الرازق رئيس لجنة الفحص لجائزة الآداب ، فمعالى الدكتور محمد بهى الدين بركات باشا رئيس لجنة الفحص لجائزة القانون ، فسعادة الدكتور حسن صادق باشا رئيس لجنة الفحص لجائزة العلوم ؛ وتحدث كل منهم عن أعمال لجنته وخصائص المؤلفات التى فاز أصحابها بالجوائز . وقد تضمنت كلمة رئيس لجنة الأدب أن اللجنة رأت نفسها إزاء كتب ثلاثة لم تستطع أن تفاضل بينها لتختار منها اثنين لجائزتى سنة ١٩٤٧ وسنة ١٩٤٨ فقررت فوز كل من الثلاثة بجائزة كاملة .

وأعلن رئيس لجنة العلوم قرار اللجنة المتضمن إرجاء توزيع جائزتها إلى العام القادم .

والفائزون فى الأدب هم — وفق ترتيب حروف الهجاء — الدكتور أحمد أمين بك ، والأستاذ عباس محمود العقاد ، والدكتور محمد حسين هيكل باشا . وقسمت جائزة القانون بين الدكتور حلمى بهجت بدوى والدكتور محمود حسين أبو عافية .

الألفاظ والأساليب فى المجمع اللغوى :

ألفت بمجمع فؤاد الأول للغة العربية فى العام الماضى ، لجنة الألفاظ والأساليب ، واختير الأستاذ أحمد أمين بك رئيساً لها والأستاذ على الجارم بك كاتب سرها ، وحددت أغراضها بالبحث فيما يرد بالصحف والمؤلفات الحديثة ، وما يجرى على ألسنة المثقفين من ألفاظ وأساليب ، لمعرفة الصحيح من غيره ، وتعديل ما ليس بصحيح ، ووضع صحيح بدلا مما لا يمكن تعديله ؛ على أن تعرض ما تنتهى إليه على مجلس المجمع ، ثم تذاع قراراته فيها بعد ذلك على الجمهور فى الصحف .

وقد بحثت اللجنة كثيراً من تلك الألفاظ والأساليب ، وأعدت فى اجتماعها الأخير قرارات فى ستة عشر لفظا وأسلوبا ، وعرضت على مجلس المجمع الذى شرع فى مناقشتها بجلسة يوم الاثنين الماضى ، وسيوالى النظر فيها فى الجلسات التالية وستذاع عقب إقرارها . ومن الألفاظ التى وافق عليها المجلس لفظ «مهرج» لمن يضحك الناس . وقد بنيت صحة هذا اللفظ على قرار سابق للمجمع يجيز تضعيف الثلاثى للتعدية والتكثير ، والموجود فى اللغة «هرج» ثلاثياً بمعنى خلط ، فالمهرج هو الذى يخلط فى كلامه لإضحاك الناس ، وقد استحسن الدكتور طه حسين بك هذا الاستعمال وأبدى رأيه فى أن يضمن «المعجم اللغوى الكبير» الذى يشرف الدكتور طه حسين على إعداده ، كل ما يعتمد من الألفاظ والأساليب التى تبحثها اللجنة .

الاستفتاءات اللغوية :

ومن عمل لجنة الألفاظ والأساليب النظر فيما يرد على المجمع من استفتاءات لغوية وأسلوبية ، وتتولى الإجابة عليها ، ثم ترسل هذه الإجابات إلى أصحابها .

ولعل من المفيد أن ينشر من هذه الإجابات ما يرى فى نشره فائدة عامة ، فأقترح على اللجنة أن تضم مثل هذا إلى الألفاظ والأساليب التى تذيعها .

وقد ردت اللجنة على ثمانية استفتاءات . ومن الطريف أن بعض هذه الاستفتاءات ورد من طبقات شعبية ، وهى ظاهرة سارة لما تدل عليه من رغبة هذه الطبقات فى استعمال الصحيح من اللغة ، ومن ذلك استفتاء من رئيس نقابة عمال التنجيد ، يسأل فيه عن كلمة «تنجيد» ليستعملوها فى تسمية النقابة إن كانت صحيحة أو يدلهم المجمع على صحيح بدلا منها إن لم تكن كذلك ، فأرسل المجمع إليه بصحتها .

الفصص الإنسانى :

تنقل الأستاذ محمود تيمور بك فى الأسبوع الماضى بين الجامعات الثلاث : جامعة فؤاد الأول بالقاهرة ، وجامعة فاروق

بالإسكندرية ، والجامعة الشعبية بدمنهور ، حيث ألقى محاضرات في « القصص الإنساني » وقد تضمنت هذه المحاضرات آراء شخصية للأستاذ المحاضر ، بناها على تجاربه وممارسته لفن القصة فتجلت فيها أصالة البحث والتفكير ، وكذلك تعرض في هذه المحاضرات للكثير من القضايا التي يتنازع فيها النقاد خاصة بالمذاهب الأدبية والفنية فقد ناقش الفكرة التي تنادي بتجنيد القصة للاصلاح الاجتماعي وتناول الأعمال الفنية للآراء والمشكلات القومية — مناقشة دقيقة خلص منها إلى القول بأن إجراء ذلك عبث بالفن ، وأن الكاتب إن لم يكن حراً طليقاً فلا صدق في فنه ، وأنه إذا كان صادقاً قوي الإلهام واستطاع أن يحس إحساساً عميقاً بمبدأ من المبادىء أو مشكلة من المشكلات ، استطاع أن يعبر عنها في عمل فني يجد فيه المصلح الاجتماعي تأييداً لقضية الإصلاح أو تعزيزاً لمبدأ من المبادىء . فأما أن يتكلف الكاتب معالجة إحدى هذه المشكلات أو يذعن لرغبة من الرغبات الخارجية في هذا الصدد ، فإنه يكون متكلماً كاذباً على نفسه وعلى الإلهام الفني .

وكان فيما تناولته المحاضرة حديث عن التاريخ بين العالم والفنان ، وقد شرح الفرق بين موقف المؤرخ والقصاص من أحداث التاريخ ومشاهده ، فقال إن العالم مضطر أن يذعن للحقائق ويتحرى دقة الأرقام وصدق الوقائع ، فأما الفنان فإنه يقرأ هذه الحقائق ويتمثلها ، ثم يترك لوحيه الفني أن يلهمه صورة لا تكذب على التاريخ برسومها وأعلامها ، ولكنها ليست ترجمة تاريخية مبنية على وقائع ، ثم قال إن المؤرخ العالم قد يقرب من المؤرخ الفنان إذا اصطبغ أسلوبه وتصويره بصبغة فنية ، وكذلك المؤرخ الفنان قد يقرب من المؤرخ العالم إذا التزم الدقة التاريخية جهد الإمكان ، ولكن الذي لا شك فيه أن مهمة كل منهما تختلف عن مهمة الآخر وأن النظرة إلى كل منهما يجب أن تكون نظرة خاصة وأن تقدر عملهما على هذا الاعتبار .

وقد أفاض المحاضر القول في مذهب ما وراء الواقع وأثره في القصة الفنية وفي الرسم والرقص والموسيقى ، وقال إن هذا المذهب يستمد من العقل الباطن ويجب أن يكون له رقيب من العقل الواعي وإلا كان كالبركان يقذف بالحمم وكالعباب يطغى موجه إلى حد الإغراق .

وختم الأستاذ تيمور بك محاضرته بالإشارة إلى أن القصة الخالدة هي القصة التي يتوافر حظها من العناصر الإنسانية الثابتة بغرائزها وطبائعها ، والتي لا تقتصر على جاذبية اللون المحلي والموضوعات الوقتية ، والتي لا تعتمد على قضايا المنطق والحكمة ولا تؤثر الوعظ المباشر والنصح الظاهر والتأييد المكشوف للقضايا الاجتماعية . ثم ألمع إلى أن من خير الطرق في تربية النشء بالقصة هو أن نضرب صفحاً عن الأمثال والمواعظ الجامدة التي لا يحس الناشىء أثرها في واقع الحياة ، وأن نستعيض عن ذلك بقصص إنسانية تربي في النشء فطنة وتبصراً بالحياة التي يعيشها فلا يعرف حين يمارس هذه الحياة أن أصحاب الأمثال والمواعظ كانوا يتكلمون عن عالم لا صلة له به ولا وجود له في حياته .

الاتجاهات الاجتماعية في العالم العربي :

كان موضوع « الاتجاهات السياسية والاجتماعية الحاضرة في العالم العربي » أو بعبارة أدق كان استيفاء الكلام في هذا الموضوع ، آخر حلقة في سلسلة « العالم كما هو اليوم » التي نظمها قسم الخدمة العامة في الجامعة الأمريكية ، فمنذ أسابيع تحدث فيه الأستاذ محمد صلاح الدين بك ، وأوردنا خلاصة حديثه في حينه ، وكان كله في الاتجاهات السياسية ، أما الشق الثاني من المحاضرة وهو الاتجاهات الاجتماعية فقد ضاق عنه الوقت في المرة الأولى ، فكان موضوع الحديث الذي ختمت به السلسلة في يوم الجمعة الماضي بقاعة يورت التذكارية .

قال إن الهدف الذي يرمي إليه العالم العربي الآن هو التمتع بالاستقلال والحرية ، والتمتع بالحياة الدستورية الديمقراطية التي تقوم على سلطة الأمة ، وتهدف إلى أن تحيا الأمة حياة إنسانية كريمة ؛ والعالم الآن تسوده مبادىء اجتماعية ، هي في نفس الوقت اقتصادية ، يقصد بها تحقيق سعادة الناس ؛ وهي الرأسمالية التي تمثلها أمريكا ، والشيوعية التي تتمثل في روسيا ، والاشتراكية كما تطبقها الحكومة البريطانية ، ومدار الخلاف بين هذه المبادىء على الإنتاج والتوزيع . فالرأسمالية تقوم على الحرية في السعي وترك ثمرات العمل لأصحاب الجهود ، والمبدأ الشيوعي يجعل المجموع الذي تمثله الحكومة يملك كل شيء ، وتوزع المنتجات على الجميع ، ولكن هل تقسم بالمساواة المطلقة ، أو على حسب الحاجة ؟ الواقع أن ما يجري في البلاد الشيوعية يحجبه « الستار الحديدي » الذي يمنع تسرب الأخبار الحقيقية ، على أنه يؤخذ

مما يرد من الأخبار أن الملكية الآن فى روسيا موجودة فى غير أدوات الإنتاج ، كالمنازل والأثاث ، أما أدوات الإنتاج كالأراضى الزراعية والمصانع ، فلا يملك الأفراد شيئاً منها ؛ وكل يأخذ على حسب جهده ، ورجال الفكر وأهل الفنون هم أحسن الجميع حالا لكثرة مكاسبهم . وأما الاشتراكية المعتدلة فهى التى تطبقها الحكومة البريطانية وهى طبعاً تقر الملكية الفردية ، ولكن مبادئها تتمثل فى تأميم بعض المرافق ، أى تنظيم الحكومة له وقيامها عليه ، وبقية المرافق يقوم بها الأفراد والشركات ، كما تتمثل فى رعاية الحكومة للطبقات الفقيرة وفرض الضرائب التصاعدية وغير ذلك .

وبعد أن أفاض المحاضر فى شرح تلك المبادىء من الوجهة العملية وبيان ما يؤخذ على الرأسمالية وما تعاب به الشيوعية قال : تتسرب أخبار هذه المبادىء إلى مصر وإلى سائر البلاد العربية ، فتشغل الأذهان بالتفكير فى أيها يصلح أن يقوم عليه النظام الاجتماعى عندنا . وأسلم سبيل أن نسعى وراء أمر واحد ، هو العدالة الاجتماعية ، فنسعى لرفع مستوى الحياة عامة ، وتحقيق العدل بين الطبقات ، ونستطيع أن نضع خطوطاً عامة لتحقيق العدالة الاجتماعية فيما يلى :

١ — التخلص من السيطرة الأجنبية التى هى سبب ما نحن فيه من جهل وفقر ومرض .

٢ — تقريب مسافات الخلف بين الطبقات بمختلف الوسائل كالضرائب التصاعدية وتحسين أحوال الطبقات الفقيرة .

٣ — ضمان العمل لكل مواطن ورفع الأجور ووضع حد أدنى لها بحيث يكسب العامل ما يقوم بجميع حاجاته .

٤ — أن نعطى المواطنين فرصاً متساوية ، وذلك بتعميم التعليم والتداوى ، بحيث يكون كل منهما ميسوراً لكل فرد من أبناء الأمة .

٥ — الضمان الاجتماعى بجميع أنواعه ، كالتأمين من العجز عن العمل والشيخوخة ورعاية من يتركهم المتوفى من الأولاد وغير ذلك .

وحذر فى ختام المحاضرة من الاستجابة للدعوات الهدامة لما فيها من خطر التدخل الاستعمارى ، إلى مخالفتها للأديان ونظام الأسرة ، وإلى ما تؤدى إليه من الحجر على الحرية العامة بالنسبة للأفراد ، لأن الحكومة فيها هى صاحبة الحرية المطلقة ؛ ودعا إلى التزام الحيدة فى المبادىء الاجتماعية وفى السياسة العالمية .

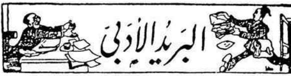
تعقيب :

ومما يلاحظ أن المحاضرين الآخرين فى الاتجاهات السياسية والاجتماعية فى البلاد الغربية ، كانوا يصفون الاتجاهات « الحاضرة » أما صلاح الدين بك فقد كان مجاله — كما رأيت — شرح المبادىء العالمية ، وبيان ما يجب أن تكون الحال عليه عندنا ؛ ويخيل إلىّ أنه عمد إلى ذلك فراراً من حرج الكلام فى حالنا التى تبلغ غاية السوء ، وماذا يقول ؟ إن جميع تلك المبادىء تضع رفع مستوى المعيشة العام فى مقدمة ما تعنى به ، فأين نحن حتى من الرأسمالية الأمريكية ؟! ولو أن باحثاً أراد أن يعرف المبدأ الاجتماعى الذى نسير عليه ، لما وجد له غير اسم واحد ، هو « الظلم الاجتماعى » .

الشروق :

أصدر الأستاذ حسن كامل الصيرفى فى الأسبوع الماضى ديوانه الجديد « الشروق » والأستاذ الصيرفى من رواد الشعر الحديث ، له « سلوك شعرى » خاص فهو لا يقول فى المناسبات وقل أن يشترك فى الحفلات ، لا ينظم إلا بالدوافع الشعرية الخالصة ، وهو يدع شعره يسير بنفسه فلا يدفعه بما يدفع به بعض الناس أشعارهم . وديوان الشروق من القليل الذى يثبت وجود الشعر فى هذه الآونة .

العباس



معرض الرسام زهدي :

أقام الرسام زهدي معرضاً في نادي الصحفيين هذا الأسبوع تحت رياسة الوزير العالم معالي إبراهيم دسوقي أباظه باشا عرض فيه سلسلة من الرسوم تمثل الوقائع المتتابعة للتاريخ المصري والعوامل التي سيطرت على توجيهه منذ الحملة الفرنسية حتى نهاية حكم إسماعيل باشا ، وليس هذا في الواقع بالعمل الهين ، فإنه اتجاه يقتضي الدراسة والاستيعاب والاندماج الروحي في جو ذلك التاريخ حتى يمكن أن ينفعل إحساس الفنان بحقائقه واتجاهاته فيرسمها بريشته وكأنها أجسام حية ناطقة تتمثل مشاهدها للنظر والفكر .

والتعبير عن الحقائق التاريخية بقلم المؤرخ أسهل بكثير من التعبير عنها بريشة الرسام ، لأن المؤرخ يسرد لك الوقائع على ما تؤدي إليه المقدمات من نتائج ، وتدل عليه الاتجاهات من حقائق ، أما الرسام فإنه لابد أن يعرض عليك في هذا شيئاً يستوقف النظر ويثير الإحساس ويوحي إلى الذهن ، وهذا كله ما وفق إليه ذلك الرسام المصري المؤمن بفنه وبوطنه وبفكرته .

وحقائق التاريخ حين تظهر في معرض الفن تكون أروع مظهراً وأشد تأثيراً وأبقى على الزمن وأخلد ، فإننا ما نزال نتغنى بحروب الإغريق ووقائعهم التاريخية ، لا كما دونها المؤرخون ، بل كما أنشدها في القديم شاعر ضرير إسمه هوميروس .

لهذا كان اتجاه الرسام زهدي إلى تصوير حقائق التاريخ المصري ووقائعه في فترة من فترات التطور أجل خدمة نحو قوميتنا ونحو تاريخنا يؤديها الفن ، ولقد تجلت في رسومه دراسة المؤرخ وتمحيصه للحقائق ، إلى جانب ما تجلى من روعة الفن وبراعته . وإن من الواجب على وزارة المعارف أن تضع يدها على هذه الرسوم التي تمثل تاريخنا الحديث أروع تمثيل ، فتضمه في كتاب إلى طلاب المعاهد والمدارس وأبناء الوطن ، وبهذا تؤدي ما قصد إليه ذلك الفنان البارع من خدمة التاريخ المصري والقومية المصرية .

لو أن فناناً أجنبياً عرض على وزارة المعارف مثل هذا العمل لوقفت أمامه خاشعة وقامت له مهللة ، ويفتح في الميزانية اعتماد ضخم لإخراجه .. ولكنه اليوم عمل فنان مصري صميم كأروع ما يجب أن يكون ، فهل آن لنا أن نؤمن بالنبوغ المصري فنؤازره وننتفع به ؟

محمد فهمي عبد اللطيف

النحو الجديد :

أخرجت دار الفكر العربي في هذه الأيام كتاب النحو الجديد للأستاذ عبد المتعال الصعيدي ، فكان فتحاً جديداً في باب التجديد ، لأنه قلب نحو سيبويه رأساً على عقب ، وأصابه في الصميم من أصوله وفروعه ، ودل بهذا على أن دعاية التجديد بيننا ليست جعجعة لا طحن لها ، وإنما هي حركة ستتناول الصميم من علومنا ، وستعيدنا علماء نجتهد ونجدد كما كان يجتهد ويجدد علماؤنا الأولون ، ولا شك أن جمود علومنا القديمة هو الذي يقعد بنا جميعاً عن النهوض ، لأن التكاسل يعدي ، كما قال الشاعر :

تثاءب عمرو إذ تثاءب خالد   بعدوى فما أعدتني الثؤباء

لقد ابتدأ كتاب النحو الجديد بدراسة محاولات التجديد الحديثة في قواعد النحو ، فدرس المحاولة الأولى للأستاذ إبراهيم مصطفى في كتاب إحياء النحو ، وفي رد الأستاذ محمد عرفة عليه في كتاب النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة ، ثم درس المحاولة الثانية في تقرير اللجنة التي ألفتها وزارة المعارف لتيسير تدريس قواعد اللغة العربية ، وفي تقرير اللجنة التي ألفت بدار العلوم للرد عليها ، ثم درس المحاولة الثالثة للمؤلف في تيسير قواعد الإعراب بمجلة الرسالة سنة ١٩٣٨ م ، ثم درس المحاولة الرابعة للأستاذ أمين الخولي في تذليل اضطراب الإعراب والقواعد ، ثم درس المحاولة الخامسة للأستاذ شوقي ضيف في إلغاء نظرية العامل لابن مضاء القرطبي في كتاب الرد على النحاة

ثم ختم هذه الدراسة التي تسجل أعظم ثورة على نحو سيبويه بوضع آجرومية جديدة للنحو ، وهي آجرومية تراعي غاية النحو الكبرى من تمثيل الإعراب لمعاني الجمل العربية ، وقد حذفت على هذا الأساس كل حشو في النحو ، كباب البناء وباب الاشتغال ، ثم أضافت أبواباً منه إلى أبواب ، لأن التفرقة بينها تخرج بالنحو عن غايته من تمثيل الإعراب للمعاني ، وقد حققت مع هذا ما أرادته وزارة المعارف من تيسير قواعد الإعراب

(ص)

رسالة النقد

« طفولة نهـــــر »

لنزار قباني

للأستاذ أنور المعـــــداوى

نزار قبانى ؟ . . أين كان هذا الشاعر وأين كنت ؟ ! ما أكثر ما يقع فى يدى من دواوين الشعر فى هذه الأيام ، فلا أكاد أقبل عليها حتى أعرض عنها . . إلا هـذا الديوان ! لقد لقيت صاحبه منذ شهر لأول مرة ، وأسمعنى بعض شعره لأول مرة ، ولم أشأ يومئذ أن أقطع برأى فى فنه خشية أن يكون قد قدم إلى خير قصائده . . أما الآن ، فأستطيع وأنا مطمئن أن أقدم هذا الشعر إلى الناس . . وأن أقدم صاحبه .

وقبل أن أضع هذه المجموعة الشعرية فوق مشرحة النقد ، أقول إنها تثير مشكلة طال حولها الجدل وسوف يطول ، ما دام هناك أناس ينشدون الفن للفن ، وأناس ينشدون الفن للمجتمع . أما أولئك فهم الذين يفهـمون الفن وأصوله ، وعلى أى الدعائم يجب أن تقام . وأما هؤلاء فلا يريدون للفن إلا أن يسير فى ركاب المجتمع ولو تنفس برئتين صناعيتين ، غافلين عن أن رسالة الفن ما هى إلا صدق التعبير عن الحياة ، التعبير عما فيها من جمال وقبح من تناسق وشذوذ ، من خير وشر ، من حرية وقيود !

سيقول من لا يفهمون رسالة الفن إن « طفولة نهر » ما هو إلا صلوات فكر فى محراب الجســـد ، أو صلوات روح ، أو صلوات شعور . . وسأقول أنا إنه صلوات فن ؛ وحين يرتفع صوت الفن بالصلاة يجب أن تخمـد كل الأصوات ! إن الدفاع هنا ليس دفاعاً عن صاحب هذا الشعر ولـكنه دفاع عن الفن . . إن الفن الصادق لا يعرف القيود ، ويوم يتشح الفن بغلالة واحدة من غلائل النفاق الاجتماعى فقل إنه قد انحرف عن الجوهر الأصيل فى رسالته ، وهو أن يعبر عن الحياة فيصدق فى التعبير ! . . عش فى أعماق الحياة ، واستخدم كل حواسك فى تذوق هذه الأعماق فإذا استطعت أن تعبر في صدق عن انعكاس الحياة على حواسك ووقعها على شعورك فقد أنتجت فناً ؛ وبهذا المقياس نستطيع أن ننظر إلى « طفولة نهر » وإلى كل أثر فنى تبدعه القريحة ! لقد كنت أود أن أطيل الدفاع عن رسالة الفن، ولـكن الشاعر سبقنى فدافع عن شعره فى كلمات صادقة حين قال : « الشعر يحيط بالوجود كله . . وينطلق فى كل الاتجاهات فترسم ريشته المليح والقبيح ، وتتناول المترف والمبتذل ، والرفيع والوضـيع . . ويخطىء الذين يظنون أنه خط صاعد دائماً ، لأن الدعوة إلى الفضيلة ليست مهمة الفن ، بل مهمة الأديان وعلم الأخلاق . . وأنا أؤمن بجمال القبح ، ولذة الألم ، وطهارة الاثم ، وهى كلها أشياء صحيحة فى نظر الفنان . يقول كروتشه فى نقد المذهب الأخلاقى فى الفن : إن العـمل الفنى لا يمكن أن يكون فعلا نفعياً يتجه إلى بلوغ لذة أو استبعاد ألم ، لأن الفن من حيث هو فن لا شأن له بالمنفعة . وقد لوحظ من قديم الأزمان أن الفن ليس ناشئاً عن الإرادة ، ولئن كانت الإرادة قوام الإنسان الخير فليست قوام الإنسان الفنان ؛ فقد تعبر الصورة عن فعل يحمد أو يذم من الناحية الخلقية ، ولـكن الصورة من حيث هى صورة لا يمكن أن تحمـد أو تذم من الناحية الأخلاقية ؛ لأنه ليس ثمة حكم أخلاقى يمكن أن يصدر عن إنسان عاقل ويكون موضوعه صورة . إن الفنان فنان لا أكثر ، أى إنسان يحب ويعـبر . ليس الفنان من حيث هو فنان عالماً ، ولا فيلسوفاً ، ولا أخلاقياً . وقد تنصب عليه صـفة التخلق من حيث هو إنسان ، أما من حيث هو فنان خلاق فلا نستطيع أن نطلب إليه إلا شيئاً واحداً هو التـكافؤ التام بين ما ينتج ، وما يشعر به »

لقد وفق نزار قبانى فى عرض قضية الفن فى هذه الـكلمات الصادقة التى تخيرتها من كثـير . وحين استشهد برأى كروتشه ، وهو رأى يقطع خط الرجعة على الرجعيين . . وحين نفذ إلى مكامن الهدف بهذه الإصابة البارعة فى قوله : « ولو صح لنا أن نقبل ما زعمته المدرسة الأخلاقية فى الفن لمات الفن مختنقاً بأبخرة المعابد . . ولوجب أن نحطم كل التماثيل العارية التى نحتها ميشـيل أنجل ، والصور البارعة التى رسمها رفائيل ، لأنها إثم يجب ألا تقع عليه العين ؛ ولو ذهبنا مع أشياع هذه المدرسة إلى حيث يريدون ، لوجب أن نخرج من حظيرة الشعر الجيد قصيدة النابغة التى قالها فى زوجة النعمان

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولتـه واتقتنا باليد

ولـكان علينا أن نملن النابغة ، ونعتبره ضالا لا يستحق أن نقرأ سيرته وأشعاره ! »

أنا مع نزار قباني ولو وقفت وحدى إلى جانبه ، وسأصغى إليه بكل جوارحى حين يهمس فى قصيدته « حلمة » :

يا حرف نار سابحاً   فى بركتى عطور
يا كلمة مهموسة   مكتوبة بنـور
سمراء ، بل حمراء ، بل   لونها شعورى
أم قبلة تجمدت   فى نهدك الصغير
مظلة شقراء فوق   قسوة الهجير
إبريق وهج عاق   بهضبتى سرور
أم أنت شباك هوى   مطرز الستور
فراشة محروقة الجنح   على غدير
دافئة كأنها .   مرت على ضميرى

هكذا تمضى أوزانه وقوافيه ، متفقة والجو الذى يتنفس فيه شعره ، جو الأوزان القصيرة والقوافى الراقصة ، أما الصورة الوصفية فتستمد بذورها من خصوبة الحقل الشعرى واتساع مداه . . . ومن هنا تستمد الوثبة الشعرية قوتها من وثبتين أخريين ، هما الوثبة الشعورية والوثبة الموسيقية .

تعال نستمع له مرة أخرى فى قصيدته « وشوشة » :

فى ثغرها ابتهال   يهمس لى تعال
إلى انعتاق أزرق   حدوده المحال
نشرد تيارى شذا   لم يخفقا ببال
لا تستحى فالورد فى   طريقنا تلال
ما دمت لى مالى وما   قيل وما يقال !
وشوشة كريمة   سخية الظلال
ورغبة مبحوحة   أرى لها خيال
على فم يجوع فى   عروقه السؤال

هنا ظلال من النفس تلتقى بظلال من الحياة ، وبضوء من هنا وضوء من هناك يتم العمل الفنى ، مستمداً خطوطه من التجربة الشعورية ؛ من وقدة العاطفة واشتعال الوجدان . . أرأيت إلى الرغبة المبحوحة ؟ الرغبة التى تتنزى فلا تقوى على الانطلاق ؟ الرغبة التى تريد أن تهتك حجب الصمت ولكنها بحت من التردد والتهيب والإحجام ؟ الرغبة التى لم يبق منها على الفم والإخيال يلوح ثم يختفى ؟ وأى فم ؟ فم يجوع السؤال فى عروقه .. ولا يبوح !

ويحلق الفكر فى آفاق من رهبة الفناء ، وتهوم الروح فى أودية النسيان التى يبلى فيها كل جديد ، ولكنها تهويمات لا تخلو من يقظة تومض تحت الرماد ، وتلتمس العزاء فى خدعة الخلود ... وتكتمل الألوان فى الصورة المنتزعة من معرض الحياة . أما الإطار فمن صنع الخيال السابح وراء الوهم ، المتشوق إلى ارتياد المجهول ، وتمضى التجربة الشعورية إلى منتهاها حين يقول فى قصيدته « سؤال » :

تقول : حبيبى إذا ما نموت   ويدرج فى الأرض جثماننا
إلى أى شىء يصير هوانا   أيبلى كما هي أجسادنا ؟
أيتلف هـذا البريق العجيب   كما سوف تتلف أعضاؤنا ؟
إذا كان للحب هـذا المصير   فقد ضيعت فيه أوقاتنا !
أجبت ومن قال إنا نموت   وتنأى عن الأرض أشباحنا ؟
سنحيا .. وحين يعود الربيع   يعود شذانا وأوراقنا
إذا يذكر الورد فى مجلس   مع الورد .. تسرد أخبارنا !

وحين يطول الانتظار ، ويعصف القلق بجمال الرؤى والطيوف ويتوثب الشوق الملح إلى القادم الممعن فى إبطائه : تكون النفس الإنسانية فى ارتقابها ولهفتها قد أنكرت كل شىء ، وكفرت بكل شىء ... استمع له يصف لحظة انتظار :

جمت وجاع المنحدر   ولا أزال أنتظر
أنا هنا وحدى على   شرق رمادى الستر
مستلقياً على الذرى   تلهث فى رأسى الفكر
وأرقب النوافذ الزرق   على شوق كفر

هل أحسست الفكر حين تلهث ، والشوق حين يكفر ؟ !

وحين يقبل الحبيب الغائب ، تقبل معه الدنيا ، وتقبل الذكريات تشق طريقها من وراء الزمن ... ويقبل الصبا بجنونه وأحلامه وأوهامه :

قالت صباح الورد ..   هـذا أنت صاحب الصغر
ألا تزال مثلما   كنت غلاماً ذا خطر ؟
تحملنى على الثرى   لعباً . . وتقطيع شعر
فإن نهضنا كان فى   وجوهنا ألف أثر !
قلت لها الله ما   أكرمها تلك الذكر !
أيام كنا كالعصافير ...   غناء وسمر

تسابق الفراشة البيضاء ... ثم تنتصر
وتنكسر النجوم ذرات ... وتحصى ما انكسر
فيستحيل حولنا الغروب شلال صور ...
حكاية نحن ... فمنذ كل وردة خبر
إن مرة سئلت ، قولى : نحن دورنا القمر !

هنا وفي كثير من القصائد الأخرى لنزار قبانى ، تلمس أن اكتمال الوحدة الفنية مرجعه إلى تسلسل التجربة الشعورية ، وتناسق الظلال المنعكسة من النفس والحياة .

وأود أن ألفت النظر إلى أن هذا الشاعر يصوغ معانيه أحياناً في ألفاظ قد تبدو لأصحاب المدرسة المادية في التعبير وكأنها قد استخدمت في غير مواضعها ؛ وهي تبدو لهم كذلك لأنهم يعيشون في رحاب الظلال المادية للألفاظ ، ولو عاشوا في رحاب ظلالها النفسية لوجدوا كل شيء في موضعه من الشعر ، لأنه في موضعه من الشعور... إن الشعر ما هو إلا ترجمة صادقة للشعور الصادق ، فلا ضير من أن يستخدم فيه اللفظ الذي تتفق ظلاله وظلال النفس ، وتتسق إيحاءاته مع منطق الإحساس ! ومهما يكن من أمر فإن لمشكلة الظلال النفسية والمادية في اللفظ قضية شغلت القدماء كما شغلت المحدثين ، وهي قضية سنعرض لها في مقال نتناول فيه بالنقد أصحاب المدرسة المادية في التعبير قديماً وحديثاً أولئك الذين لا ينظرون إلى الألفاظ إلا من خلال هياكلها العظمية !

كل ما آخذه على صاحب « طفولة نهد » ، هو تلك القوالب النثرية التي يصب فيها شعره أحياناً ، وما يرد في بعض أبياته من ألفاظ ابتذلت من كثرة الاستعمال ، مما يعصف بجمال القالب الشعري ، ويذهب بأثر الإيقاع الموسيقى . استمع له مثلا في هذين البيتين :

ما دمت لى سر السماء معى وهذه الأقمار أقمارى
وأنجم السماء لى مئزر وفوق جفن الشرق مشوارى

إن كلمة « مشوارى » هنا كلمة سوقية لا تتفق أبداً وهذا الجو الشعري الذي عاشت فيه ، ولو وردت في النثر لما استسغناها ، فما بالك بالشعر ؟

واستمع له مرة أخرى في هذين البيتين :

هو الدفء لا تذعرى إن رأيت قميصك نهب تدفع قه
فما عدت يا طفلتى طفلة سيهمى الشتا غيمة بعد غيمه

نهب تدفع قة ؟ ! .. إضافتان ثقيلتان على السمع ، لا تكاد تطيقهما الأذن العادية ، فما بالك بالأذن الموسيقية ! ألا تحس هنا أن القالب قد بدأ أقرب إلى النثر منه إلى الشعر ؟

واستمع له مرة ثالثة في هذين البيتين :

انى تحارير الهوى وأمضى أنا في السحاب وأنت في الأرض
غورى مع الشيطان لا أسف ولتبتلعك زوابع البغض

لست أدري كيف تحتمل الصياغة الشعرية كلمة « غورى » هذه .. لقد اهتز صرح الجمال الفني في البيتين تحت وطأة هذه الكلمة !

مآخذ قليلة كنت أرجو أن يخلو منها هذا الديوان ، ومهما يكن من أمر فإنها لا تمنعنى من القول بأن نزار قبانى شاعر .. وشاعر موهوب .

أنور المعداوى